فيروز الشطآن

بوح العشق

(رواية)

» اسم الكتاب: **بوح العشق.**
» اسم المؤلفة: **فيروز الشطآن.**
» الترقيم الدولي: ISBN: **978-9933-567-50-7**
» الناشر: **دار عقل للنشر والدراسات والترجمة.**
» سنة الطباعة: **2022.**

جميع الحقوق محفوظة لدار عقل

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار عقل
للنشر والدراسات والترجمة
هاتف: 00963115618956
00963115637060
aklpublishing@gmail.com

الإهداء

– إلى كل قيس وليلى أصابه الحب بسهامه فمات عشقاً..،
ومات شوقاً..،
ومات توقاً...

– إلى كل عاشق ظلمه الهوى فانزوى حيث الجوى. هناك وحيداً بجزيرته السرية، يجتر ذكرياته، لاشتياقه لتلك المشاعر التي تجعله يحلق ليلاً مع النوارس...

– و.....
إليك..،
يا من حولني إلى حلم جميل لا يغادره، ولا يقوى على تحقيقه!!!...
هل تعلم...
إن الرحيل حل مؤلم، لكنه أحياناً حل جميل، حين يبهت الحب، ويذبل الورد، ولا يقوى الحمام على الهديل...

– **فيروز** –

«الحزن هو الثمن الذي ندفعه مقابل الحب..».

– الملكة إليزابيث الثانية –

«الحب الفاشل موجع، ولكن الحب المتبادل أكثر إيلاما.. لا شيء يشفي غليله سوى الاحتراق المشترك أو الموت المشترك..».

– غادة السمّان –

«هنيئاً للأدب بفجيعتنا إذن. (...) فما أجمل الذي حدث بيننا. ما أجمل الذي لم يحدث.. ما أجمل الذي لن يحدث».

– أحلام مستغانمي –

« الذين نحبهم لا يتركوننا أبداً..، إنهم يودعون في قلوبنا نجمة السعادة لينقذوننا من ألم الذكريات...»

– فيروز الشطآن –

تُحدث آلاء نفسها متسائلة، بينما ترتب أدراج مكتبتها الخاصة، وهي مهمة لا تقوم بها إلا كل خمس أو عشر سنوات، وربما أكثر:

لِم نادراً ما تلتقي المرأة برجال مميزين يتركون بصمة في حياتها؟

تنثر الملفات الموجودة في درج الياسمين فوق السجادة. تجلس القرفصاء وتبدأ بتصفح أوراقها القديمة التي بدأ الاصفرار يزحف نحوها تاركاً بصمة الزمن عليها. تجد بين الأوراق ظرفاً بنياً كبيراً مغلقاً بعناية، ولأنها نادراً ما تعود لرؤية محتويات الأدراج، خاصة الدرج الثالث – والذي تدعوه عشقاً في الياسمين: درج الياسمين – فقد نسيت ما قد يحتويه الظرف. تفتحه بحذر شديد. تردد: سأغيره حتى لا تهترئ الأوراق التي بداخله لكن يا ترى ما الذي يحتويه؟. تتساءل مستغربة وتتأسف كيف أن طول مدة إعادة ترتيبها للأدراج يجعلها تنسى ذكرياتها الورقية. وتبدأ بالتعرف على المحتويات: بطاقة تهنئة لرأس السنة الميلادية الموافقة لعام ألف وتسعمئة وثمانية وتسعين. ورقة كبيرة مطوية. فتحتها فوجدت صورة لطفلة جميلة تبتسم. وجدت كذلك رسائل، وعرفت صاحبها، إنه نورس، ذلك الشاب الذي تمرن بالإدارة التي تعمل بها. آوه، كم كان شخصاً رائعاً.. ها هي تبتسم للأوراق ثم لا تدري لم رغبت فجأة في البكاء لأنها رفضته (أحياناً نتصرف بغباء في هذه الحياة ولا نعي قيمة الأشياء إلا بعد أن نفقدها). وجدت كذلك جملة أوراق يبدو أنها منزوعة من كراس مدرسي وضعت في ملف بنفسجي باهت فتر لونه عبر الزمن. كتب في وسطه عبارة: "قصة: منتهى الحب". تملكت آلاء رغبة شديدة لمعرفة ما كتبته قبل سنوات عن حكايتها مع نورس فنثرت الأوراق، وبدأت بالقراءة:

– منتهى الحب... –

إهداء خاص

إليك...
يا أيها العاشق الرائع
سيدي...
بحضورك اكتمل المشهد فأصبح منتهى الحب والغرام...

- آلاء -

قبل عشر سنوات...

دق باب المكتب النصف مفتوح. دخل شاب أسمر، نظر إلينا وابتسم ثم قال بكل لباقة وحذر شديد:

– السلام عليكم.

– وعليكم السلام (ردت فريال).

– عفواً مدام فريال، طلب مني السيد عبد الكريم أن أبقى معك في المكتب لمدة أسبوع من فترة تربصي بإدارتكم.

– لا بأس، تفضل. لقد أخبرني بذلك إذن أنت هو الطالب الجديد القادم من المعهد.

– نعم.

– ما اسمك يا بني؟

– نورس.

– اجلس نورس، لم أعرفك. هذه الزميلة آلاء، وهي تعمل معنا. مكتبها بالطابق الأول.

– مرحبا آنسة آلاء.

قال ذلك وهو ينظر إلي مبتسماً بخجل واضح. قررت حينها أن أترك فريال تمرن الطالب الجديد فقلت لها:

– حسناً فريال، أنا ذاهبة لمكتبي، أراك لاحقاً إذن، وتشرفنا بمعرفتك أخ نورس.

– شكراً. مع السلامة (أجاب نورس).

عدت إلى مكتبي. وبدأت أكمل ترتيب الملفات التي تركتها فوق المكتب حين قررت النزول عند فريال للثرثرة قليلاً.

***

نحن في شهر نوفمبر. وها هو شتاء مدينتنا يطرق الأبواب باستحياء. الجو بارد قليلاً والمطر الخفيف يهطل بين الحين والآخر. ها قد حل فصل الشتاء إذن، وها هي نسماته الباردة تقبل على مهل.

وكما كل يوم، استيقظت عند الساعة السادسة والنصف صباحاً.

وكما في كل يوم، غسلت وجهي وتوضأت ثم صليت الصبح.

وكما في كل يوم، حضرت ملابسي وأشيائي التي سآخذها معي إلى العمل (أشياء العمل قد تكون قارورة ماء باردة، علبة متوسطة الحجم بها وجبة الغداء المحضرة بالبيت، ولوازم أخرى تتغير حسب احتياجاتي اليومية بالمكتب).

وكما في كل يوم، سكبت قهوتي المرة الساخنة في كوبي الأبيض الكبير.

وكما في كل يوم، شربت محتوى الكوب الساخن، الحارق أحياناً كثيرة.

وكما في كل يوم، ركبت الحافلة وتوجهت إلى العمل. الساعة تشير إلى الثامنة وخمس عشرة دقيقة. دخلت مكتبي. رميت الكيس بجانب الكرسي ثم رميت بنفسي فوقه بعد أن تمعنت فيه قليلاً، إن كان فيه غبار أو لا. وهكذا يبدأ يوم العمل. قد تتسمر في كرسيك لساعات تصنف الملفات أو تعمل على الكمبيوتر. لا شيء جديد. عاماً بعد عام يصبح العمل الإداري روتيناً في روتين، روتين ممل...

وكما في كل يوم، عند الساعة السادسة عشرة والنصف مساءً، نغادر مقر الإدارة. ونعود إلى منازلنا ليبدأ روتين آخر في المنزل.

أتناول العشاء مع العائلة. أغسل الأواني ثم أدخل إلى غرفتي. الساعة تشير إلى التاسعة ليلاً. أجلس فوق الأريكة وأشعل التلفاز. أشاهد أي برنامج تلفزيوني لحين اقتراب موعد نومي. عندما أبدأ بالتثاؤب أدرك أن النوم يطرق الباب فأتجه إلى فراشي وأحضن وسادتي البنية ثم أستسلم له.

على فكرة هذا البرنامج اليومي قد يتغير طبعاً. أحياناً مثلاً يتمكن مني إحساس الوحدة لأسباب غير واضحة فأرغب في تدوين أي شيء في دفتري، وهو ليس مفكرة أو دفتر يوميات، إنه مجرد أوراق مصفوفة فوق بعضها موضوعة في ملف قد يكتب فيها أي شيء، وهذا هو الذي أسميه للحميمية: دفتري كون علاقتي بالأوراق البيضاء حميمية حقاً، هناك صداقة غريبة تجمع بيننا ويشاركنا القلم الأسود هذه الصداقة التي تمتد من أيام الصبا. إنني قد أركض في أي لحظة لأكتب.. لأكتب خاطرة أو قصيدة أو أي شيء ليس له مسمى محدد بحسب ما قد يمليه الإلهام، هذا الأخير من خلال العشرة الموجودة بيننا الممتدة لسنوات أراه لا تعنيه القوالب الأدبية كثيراً، وأنا لم أفكر أن أضغط عليه يوماً فصداقته لي تسعدني، وذلك يكفيني. أحياناً لا يأتي الإلهام فآخذ أي كتاب من رف مكتبتي الخاصة لأقرأه. أحياناً تلفني الوحدة كفريسة. هذه الليلة، خيوط العنكبوت لا تمل من الالتفاف حولي.. أشعر أني داخل دوامة. هكذا بلا سبب واضح.

تلك هي أحوال فتاة في عقد العشرين اسمها: آلاء...

***

اليوم ذكرى عيد ميلادي، ومع ذلك أحسه ككل يوم، لكن قررت ألّا أستسلم، وغداً سأحتفل مع آلاء بعيد الميلاد، وسنذهب إلى محل الحلويات لنبتهج سوياً بتناول الحلوى المفضلة لدي "بابا"، ثم سنشتري هدية جميلة لآلاء. أمتعني هذا الشعور، وهذا الدفق المركز من الحنان النفسي. أحببت فكرة الاحتفال بمفردنا، بل توسلت إلى آلاء أن تخبرني بماهية الهدية لكنها رفضت وقالت:

– إنها مفاجأة يا عزيزتي. عليك انتظار الغد لتعرفي.

***

اليوم هو يوم الاحتفال. حرصت أن آخذ معي هذا الصباح مبلغاً زيادة على مصروفي المعتاد. ذهبت إلى العمل. مرت الساعات المعتادة رتيبة لم يتخللها أي شيء جديد غير إحساسي الداخلي بالسعادة والذي يجعلني أنتعش. قاربت الساعة على السادسة عشرة والنصف موعد مغادرة مقر العمل. خرجت مسرعة بعد أن قمت بالإمضاء في كشف حضور الموظفين. توجهت مباشرة إلى وسط المدينة حيث أشهر محل حلويات. دخلت. جلست على الطاولة. طلبت من النادل قطعة "بابا" وكوب عصير برتقال بارد. تأملت الجلوس بينما أنا أتناول حلواي اللذيذة. تمنيت لو أني أستطيع وضع شمعة زرقاء جميلة وأغني لآلاء أغنية عيد الميلاد، لكن ذلك كان صعباً نوعاً ما. قلت في قرارة نفسي:

– لا تهم الشمعة يا آلاء لكن سأحقق لك الأمنية الثانية. سنغني أغنية عيد الميلاد بصوت منخفض. هيا، سوياً.

دندنا معاً وبصوت منخفض جداً أجمل ما نحفظ من أغاني عيد الميلاد. في الحقيقة، تمنيت أشياء أخرى كثيرة مثل: لو أن شخصاً عزيزاً على قلبي يقول لي: كل عام وأنت حلوة، ستصبح الأيام أسعد، صدقيني.. هكذا...

بعدها خرجت من المحل. أسير في الشارع وأنا أفكر بنوع الهدية التي سنشتريها لآلاء. بينما التفكير مشوش بسبب الهدية وقعت عينيّ على محل للمجوهرات الفضية. أعجبتني الفكرة ولم أتردد. دخلت إلى المحل وبدأت أمعن النظر في الخواتم والقلادات والأساور. أبهرتني الأحجار الكريمة التي تزين الجدار الذي تحول إلى لوحة فسيفساء جميلة من كثرة الألوان. لمعت تلك الزمردة الخضراء التي اتجه إليها الآن ضوء المصباح المثبت في السقف. قلادة رائعة والزمردة أروع. سنشتريها يا آلاء لقد أعجبتني كثيراً:

و....

يا آلاء... ،

يا روحي...

عيد ميلادك اليوم، فماذا أهديك؟...

هل الزمردة تكفيك

لأهديك إياها

مع باقة نرجس وأقحوان

وكتاب لغادة السمَّان

فهل يكفيك؟

ما سأهديك...

واشتريت القلادة الفضية، ثم عدت إلى المنزل. كنت مسرورة بكل شيء حدث لي اليوم. كم أنت طفلة يا آلاء، أبسط الأشياء تسعدك... اليوم سندون أحداثاً كثيرة في الدفتر. نمت سعيدة بينما القلادة في يدي.

***

أردت الثرثرة قليلاً مع فريال فهتفت لها:

- ألو.
- ألو، مرحباً.
- عفواً، مكتب مدام فريال. أوه، تذكرت، أنت الطالب الجديد نورس، Sorry، فريال موجودة؟
- Don't worry، مدام فريال غير موجودة.
- آوه، تعرف الإنكليزية، شيء جميل.
- ليس كثيراً - أجاب نورس.
- لا بأس، عندما ترجع قل لها أن تتصل بي، OK.
- OK .
- Thanks .

وضعت سماعة الهاتف. ولا أدري لِم رغبت في استرجاع الكلام الذي دار بيني وبين نورس. ما أزال مستغربة إجادته للغة الإنكليزية كوننا شعب مفرنس. أحببت هذا الأمر فأنا أعشق اللغة الإنكليزية وأصبح أكثر سعادة عندما أجد أي شخص أتكلم معه

بهذه اللغة. سعدت بنورس كثيراً عندما فهم ما قلت بالإنكليزية على بساطته، وأسعدني أكثر حين أطلق وسط حديثه بضع كلمات منها.

بينما أنا مطأطئة الرأس، وفي حالة استغراب من هذا الطالب الجديد، دخلت فريال المكتب وهي تسألني:

– ماذا تريدين؟

– آآآآآه، أخفتني.

– ماذا!!!. أخفتك، هل أنا بعبع حتى أخيفك؟

– هههههه...، أضحك.

– فيم كنت تفكرين حتى شردت هكذا؟

– لا شيء مهم. تعرفين اتصلت بك فرد عليّ نورس وتخيلي يتكلم اللغة الإنكليزية.

– ولِم الدهشة؟، ألم يعلموكم اللغات الأجنبية (الفرنسية والإنكليزية) بالمدارس؟؟؟...

– نعم لكن كما تعلمين القليل من يهتم باللغة الإنكليزية. كل الطلاب يميلون إلى تعلم اللغة الفرنسية.

– إيه، لماذا اتصلت؟

– لا شيء، ضجرت فأردت أن أنزل إليك لنثرثر قليلاً إن لم يكن لديك عمل.

– وما سبب الضجر لهذا اليوم؟ ثم تعالي، لِم لم تذكّريني بعيد ميلادك يا بنت؟ تعرفين أربعة أولاد وأبوهم. يوماً ما سأدخل مشفى الأمراض العقلية برجلي.

– لِم التذمر يا فريال؟ الأولاد نعمة وزوجك رجل طيب ثم أنت السبب لِم لم تقومي بتحديد النسل؟

– ماذا أفعل يا آلاء؟ أعصابي تلفت من تناول حبوب منع الحمل. كان الصداع لا يفارقني بسببها.

– لا بأس.. من حظك أن عبد الرحمن يحب الأطفال.

– لا تلهيني بالكلام. عيد ميلاد سعيد ولن أنسى الهدية، لا تخافي .

– ماذا تقولين؟ وجودك بالعمل أفضل هدية، تعلمين ذاك

– أعلم، أعلم لكن ذلك لا يمنع من أن أحضر لك هدية. نحن لا نحتفل بميلادك إلا مرة في السنة، ثم لِم لم تذكريني لنحتفل سوية.

– لقد احتفلت.

– مع من؟

– مع آلاء، قلت لها ذلك وأنا أضحك.

– كم أنت مجنونة، حقاً مجنونة.

– واشترت قلادة. أتريدين رؤيتها.

– طبعاً، أريد. دعيني أرى.

أريتها القلادة وهي معلقة في عنقي. أعجبتها. قبلتني وتمنت لي السعادة وأن أحتفل العام القادم مع زوجي بعيد ميلادي. ضحكت من كلامها كثيراً وقلت لها:

– ليأت أولاً ثم سنحتفل.

– قولي إن شاء الله، أنت فتاة طيبة ويليق بك الفرح.

– شكراً فريال.

قمت إليها وقبلتها. سعيدة أنا بصداقتها. لن أطلب الكثير من الله. ليكن ما يريد. كما أنني مسرورة بوجود فريال في حياتي. شخصيتها بسيطة ومتواضعة ودائمة الابتسام مهما كانت مهمومة كما أنها دائماً تهون عليّ مشاكل العمل وتنصحني.

***

وحل فصل الشتاء أخيراً في مدينتنا. اليوم هو أول أيام الأسبوع والذي وافق منتصف شهر نوفمبر. الطقس بارد. نثرثر في مكتب فريال.

– الجو بارد.

– قولي بارد جداً .

– ليس كثيراً (يقول نورس).

نظرنا إليه مبتسمتين، ثم قلت:

– وهل يختلف الشتاء في مدينتكم؟

– طبعاً، إنه أكثر برودة من هنا.

بقيت أنظر – دون قصد مني – إلى نورس وهو يتكلم. انتبه لنظراتي فاحمر وجهه. طأطأ الرأس قليلاً ثم رفعه وقال لي:

– ماذا درست يا آلاء في الجامعة؟

– أنا؟... درست إدارة أعمال في الجامعة المركزية بالعاصمة.

– لكنك تجيدين اللغة الإنكليزية؟

– لأني أحبها..

حرك رأسه بإعجاب. لاحظت أنه يريد أن يسترسل في الكلام

عن الجامعة وأيامها لكن فاجأته فريال الواقفة أمام النافذة بعد أن بدأ المطر بالهطول بغزارة:

– ابتعدي عن النافذة آلاء، إنها تمطر أكثر.

– قادمة. أجبتها بفرح وأنا أركض نحوها.

تعلم فريال مدى عشقي للمطر. أعاود الوقوف أمام النافذة بحذر. أوه، كم كان المنظر رائعاً. ابتسمت لفريال وأنا أقول لها:

– أوه فريال، كم تريحني رؤية المطر، وتغريني على الكتابة.

ويسأل نورس ثانية:

– هل تكتبين آلاء؟

– نعم...

أنظر إليه مجدداً، وأنا أقول في قرارة نفسي: ما هذا، أسئلة هذا الطالب الجديد كثيرة اليوم؟. أحاول ألا أهتم فأستمر في النظر للمطر بينما هو ينزل بغزارة حتى تبللت ملابسنا قليلاً. ابتعدت فريال من أمام النافذة أما أنا فلم أكترث كثيراً للأمر. صرخت عليّ عندما رأت بأني تسمرت دون حراك:

– ابتعدي يا بنت عن المطر، ستمرضين.

– لا. لا تخافي لن أمرض.

– قلت ابتعدي. هيا تعالي لننزل عند منال قليلاً. لم أرها منذ يومين.

– حاضر. آتية.

***

مرت عدة أيام. اليوم هو الخميس (آخر يوم من أسبوع

الدوام). رن هاتف مكتبي. رفعت السماعة. كان نورس على الخط الثاني. قال:

– صباح الخير آلاء.

– صباح الخير نورس، أرأيت، أصبحت قادرة أخيراً على تمييز صوتك.

– حقاً!.. شكراً. كيف الحال؟

– لا بأس. بخير، وأنت؟

– الحمد لله. بدأت أتعود على جو العمل والموظفين.

– شيء جميل. إذا احتجت أي مساعدة، لا تتردد، أطلبها منا.

سكت برهة ثم قال:

– آلاء. في الحقيقة، سأطلب منك شيئاً آخر. قلت عندما كانت تمطر الأسبوع الماضي إن المنظر يغريك على الكتابة. هل تكتبين؟

– نعم؟؟؟... يوم المطر. أوه، فعلا قلت، لا أذكر.

– قلت. قلت.

– حقاً. إذن، قلت

– هل يمكن أن أسألك: ماذا تكتبين؟

– يمكن، يمكن، يمكن أن تسأل أستاذ نورس. لا أكتب شيئاً محدداً. ما يخطر على بالي، أحياناً تكون خاطرة وأحياناً قصيدة وأحياناً خزعبلات بلا مسمى.

– هل يمكن أن أقرأ بعضاً من كتاباتك؟

تعجبت لهذه الجرأة فقلت له:

– ولماذا تريد قراءة ما أكتب؟

– هل انزعجت آلاء؟...، أنا آسف.

– لا. ليست المسألة مسألة انزعاج لكن...

– عذرا. أسحب كلامي وسامحيني على هذه الوقاحة التي بدرت مني.

– لا. لا، ماذا دهاك نورس؟. فقط استغربت كلامك كما أنني أفكر في نشر ما أكتب ولن يزعجني أن تقرأ بعضاً منه.

– إذن، هل تتفضلين بقبولي قارئاً لك؟

– لا بأس. سأحضر لك شيئاً يستحق القراءة فعلاً، قلت له ذلك وأنا أضحك.

أسعده كثيراً ما قلت فرد عليّ:

– شكراً آلاء. شكراً. لم أقل لك. أنا أيضاً أكتب.

– حقاً!!!...، متعجبة.

– نعم.

– شيء جميل...

أغلقت الخط. استغربت جرأة نورس لكن قلت ربما هي رغبة مبدع مهتم بالأدب ويريد أن يخفف ضغط العمل بالقراءة. لم أرد أن أطيل التفكير في الموضوع فأبعدت الهاتف وانشغلت بتحرير بعض الرسائل التي أعطاني إياها السيد عبد الكريم للرد على أصحابها.

***

بعد أيام، عاود نورس الاتصال وألح في طلب كتاباتي.

أحرجت منه فقررت أن أبحث له الليلة في درج الياسمين عن أي شيء. في الصباح، ذهبت إلى مكتب فريال فوجدته جالساً يقرأ ديوان شعر لأبي فراس الحمداني. قدمت له قصيدة كتبتها قبل سنوات. أمسك بها وهو جد سعيد. تعجبت من تصرفه لكن ابتسمت ثم جلست بجانب فريال وبدأنا نثرثر كعادتنا. بعدها عدت لمكتبي لأنهي عملي الذي تراكم من يوم أمس بسبب غيابي في الفترة المسائية للدوام.

كان المكتوب في الورقة التي أعطيتها لنورس ما يلي:

"... وأطفأت أنوار غرفتي. أشعلت الشمعتين البيضاويتين اللتين اشتريتهما من المعرض التجاري هذا الصباح. حملت قلمي، دفتري، وجلست على كرسي الهزاز المنزوي هناك في الركن البعيد. أمعنت النظر جيداً في الوردة الحمراء المجففة قهراً داخل الكتاب. هديتك. أخذت نفساً عميقاً. لا أعرف لحد الآن لم فشلنا في فهم بعضنا. وكيف تم فسخ الخطوبة؟. ولِم لم نستطع الاستمرار معا؟؟؟... عن مشاعرنا أكتب. هل ما زلت تذكر تلك الفتاة التي حاولت لكن فشلت في احتوائك؟؟...".

طبعاً، هذه الفقرة لم أعطها لنورس فهي لا تعنيه بالمرة لكن أعطيته نتاج هذا الإحساس. منحت له قصيدة "آهات في كلمات"، والتي تقول:

- آهات في كلمات...-

وتنطلق من نفوسنا آهة عميقة

أشبه بالصرخة

لكنها رقيقة
تفر من القفص حرة، طليقة
***
وأرمي بالكتاب
لعله عتاب...
فها قد سقطت الوردة الحمراء اليابسة
لم يا إلهي كتب على العشاق
ساعة للحب وألف سنة فراق
***
الآهة أعمق...
أعمق مما ظننت
لعلها تفسير ما حلمت
فشكسبير قال ذات يوم:
"العيون مفتاح الروح"
والآهة قد أحياناً تبوح
في صمت...
لأنها صرخة من روح تنوح
***
آه...
وأضغط على صدري
فيبوح لي قلبي
بقصيدته الجميلة

لكنها حزينة
لكونها سجينة...،
ومن وراء القضبان، تصرخ ملء الفم:
أمهلني لحظة يا قدري
لأخبر الناس عن سري وعلني
فأنت يا عمري
خلاصة العمر
فهل كنت تدري؟...

***

خلاصة الحقيقة
أن الآهة صديقة
فمهما كان الحال
إنه من المحال
ألّا نبوح بالآهات
أو نترجمها كلمات
فبهذا نتأكد
أن لحظة الحرمان
دليل على أهمية احتياجنا للحنان
فنحن كالأطفال
نبحث دوماً عن شخص
يغمرنا بالحنان....

***

ومرت الأيام...

اليوم هو رأس السنة الميلادية. وبينما أنا وفريال في مكتبي نثرثر أطل علينا نورس على غير عادته. إنها المرة الأولى التي يدخل فيها مكتبي منذ بدأ فترة تربصه الأكاديمي. بقي واقفاً أمام الباب طويلاً ونحن ننظر إليه بتعجب. تساءلنا: ماذا دهاه؟. لِم هو متسمر هكذا في مكانه، لا ينبس ببنت شفة، فقط ينظر. لم نتمالك أنفسنا فقلنا أنا وفريال دون تخطيط وفي نفس اللحظة:

– نورس، ماذا بك؟

– ...

– نورس، أدخل.

لم يجب واستمر في النظر إلينا. قلت في قرارة نفسي: كم هو ممتع هذا الرجل ومختلف. يرضي غروري كامرأة بل غرور أي امرأة، وهل يهتم؟.. لا أحد يهمه. غير اتجاه الرؤية نحوي وأصبح يحدق في عيني بعمق. فريال مندهشة. تنظر باستغراب إليه فهي لا تفهم سبب تلك النظرات أما أنا فيبدو أني قد بدأت أستنتج بعض الأشياء. أشياء ليست ككل الأشياء ففي نظراته أسئلة وأجوبة وكلام كثير.. وقف لبرهة غير قصيرة ثم عاد أدراجه.

– يا لجرأته. (تقول فريال).

– بصراحة تلك حلاوته. (أرد عليها).

نظرت إليّ مستغربة ردي:

– آلاء، ماذا هناك؟؟

– والله، لا شيء. فقط علقت على الموقف، وعما رأيت.

– وماذا رأيت يا فيلسوفة؟

ابتسمت لها بخبث نسوي خفي:

– سنعرف لاحقاً. لا تتعجلي الأمور.

– آه، منك. هناك خطب ما لكن لا تريدين أن تقولي لي. لا بأس. ستعترفين، ستعترفين سابقاً أو لاحقاً ولن أستعجل فأصلاً لا توجد من ستخبرينها بأسرارك غيري.

– وماذا فعلت أنا؟

– لا شيء. فقط ابتسمت بخبث. لقد رأيتك

– ...

– حال نورس متغير. ماذا هناك؟

– ...

لا أجد الكلمات لأرد عليها. ماذا سأقول لها؟.. صمت وأنا مبتسمة.

***

غدا يغادر نورس الإدارة فمدة التربص انتهت. لن أخفي عليكم هذا السر. بعد عودة فريال لمكتبها، رجع نورس وأعطاني ورقة ملفوفة. تفاجأت تماماً كما تفاجأت بنظراته من قبل. قال لي بصوت يرتعش:

– كتبت لك قصيدة.

– ..... (لم أجد الكلام لأعقب)

طلب مني ألّا أفتحها الآن. لبيت رغبته الغريبة فلم أرد أن أزيد

من إحراجه. عندما غادر المكتب فتحت الورقة وبدأت في قراءتها.
تقول القصيدة:

- .....؟
من قال عن الشتاء إنه قاس؟
ومن حكم على عزوف النوارس...
فأنت غيم لسحاب أبيض جميل
حجب عني كل شمس تريد أن تميل
فأصبحت لا أفرق..
بين الجائز والمستحيل
لست أدري.. هل ندى الورود
دمع.. وقهر وليل طويل
أم تلك أسطورة يحكيها الزمان
وتدونها أضواء القناديل..!
فعندما جلت بمضارب قلبي
لم أعثر إلا على فحم لكبرياء قتيل
وانتظرت طويلاً حتى جاء راهبك
فتعثرت أوراقي.. وأجهش يراعي
بالمداد باكياً، على الأوراق يسيل
فلست ناسيك...، ولن أنساك
ولا الدهر قادر على كف العبرات
ولا الليل يكفيني عن ذكراك
لآني لم ولن أقبل عنك البديل!

لقد أذابتني آهاتك وأحرقتني زفراتك
فلمَ لا تغرقي في عبراتي؟ وتفهمي صدى عباراتي
إذ إن نورسك بين يديك...
فهل آمنة حقاً شواطئك؟
و وردتك الحمراء ستبقى في يدي
ما لم تذبل إن أطبقت جفنيك
فاشهد يا وجود واحكم يا زمن
فلا أظن أغاني ربيعي قد تكفيني
إن غنيتها لوحدي من دونك
ولا أظنني قادراً على عصف رياح
تضرب أجنحة نورس عشق شطآنك
فأرشدني يا قلمي إلى سر قلبها
وحدثها عن حبر من دم يفديك
فلا يزال نورسك الأبيض يغريك
ما حييت أمواج شواطئك...
فاعلم يا بحر أني ما تحديت أمواجك
وما خالفت رباً أجاد صنيعك!
فأين أنت يا... من كل هذه الشطآن
وأين... من بنت الزيبان؟؟؟

Je dis toujours …
Pour gagner votre vie
Il faut agir très vite

Et pour que vous y agissez
Il faut toujours..
Un premier pas

***

La chance ce réalise une seule
fois dans nos vies..
Le plus fort, c'est celui qui
pouvais l'exploité.
D'après: N

– أترك لك وضع العنوان..

تحياتي القلبية:

نورس

طويت الورقة. تنهدت بعمق: ما هذا بحق السماء؟.. يبدو أن الطالب الأكاديمي شاعر فحل. وهذا الشاعر يبدو أيضاً أنه مغرم، وبمن؟ بي أنا. لم أوحى لنفسه بهذا الأمر. يا ليتني لم أعطه تلك الورقة التي دونت فيها أحاسيسي الخاصة لكن لا أعتقد أن القصيدة هي السبب. الربط غير منطقي أبداً. وأعدت قراءة القصيدة ثم طويتها وبدأت أفكر في كل ما حصل. أفكر دون أن أستطيع الوصول لنتيجة منطقية أو غير منطقية حتى...

منذ تلك الحادثة لم أعد أستطيع النزول لمكتب فريال، وعندما تسألني عن السبب أتحجج بأي شيء...

***

رحل نورس. رحل دون أن يودعني. سمعت صوته أمام باب الإدارة فمكتبي يقع بمواجهة الشارع. تأكدت أنه ذاهبٌ حقاً دون أن يقول شيئاً. لا أدري لم هتفت إلى مكتب فريال. سمعت خطوات تتسارع. كان هو على الخط. تفاجأت؟..، ربما، لا أدري لكن انتابني ارتياح عميق لسماع صوته. قال بصوت لاهث:

– كنت متأكداً أنك أنت.

– ...

– عرفت أنك ستهتفين لأني متأكد أنك سمعت صوتي.

– ...

– تكلمي آلاء. قولي شيئاً.

أخذت نفساً عميقاً بصعوبة ثم قلت له:

– أنت ذاهب حقاً؟؟؟؟

– نعم. انتهت مدة التربص وعلي العودة للجامعة.

–...

– هل قرأت القصيدة آلاء؟

– نعم، قرأتها.

– هل أزعجتك كلماتها؟

– لا، على العكس، أسلوبك رائع.

– شكراً. ألا ترغبين بالتعقيب عليها؟

– ...

عاد نورس إلى جامعته.. رحل هذا العاشق الذي يصغرني بثلاث سنوات. رحل دون أن أرد على نورسه أو أعلق على محتوى

قصيدته.. رحل، ربما دون رجعة.. رحل نورس.. رحل، فهل فارق السن الذي بيننا هو سبب كاف لصد حبه؟؟؟...

***

مرت أسابيع على رحيل نورس. كان يوم ثلاثاء حين رن هاتف مكتبي. قالت لي السكرتيرة فضيلة بأنه لديّ مكالمة خارجية فأجبتها متسائلة:

– مرريها فضيلة لكن من المتصل؟

– لا أعرف، لم أرد أن أسأله خوفا من أن تنزعجي؟

– ولِم أنزعج. سامحك الله. دعيني منك الآن. مرري المكالمة. ألو.

– ألو. آنسة آلاء.

– نعم. من معي؟

– صباح الخير.

– صباح النور، من معي.

– هل صوتي تغير لدرجة أنك لم تتعرفي عليه؟

– قلت من معي (رددتها بانزعاج).

– آسف آلاء. أنا نورس.

– آآآآه، من تقول؟.. نورس (قلتها وأنا جد مستغربة).

– نعم، نورس.

– ...

– فكرت طويلاً آلاء قبل أن أتصل بك لكنني لم أستطع الاستمرار في تحمل ترددي. لا تعلمين آلاء كم رغبت وبشدة في

سماع صوتك..

– ...

– كنت أتجول وسط المدينة وعند رؤيتي لدكان الهاتف العمومي لم أستطع مقاومة رغبتي في التكلم معك..

– ...

– آلاء، بصراحة، طيلة الأسابيع الماضية وأنا أفكر في تصرفك. أفكر في القصائد. فكرت كثيراً حتى أحسست بأني سأنفجر في لحظة ما.

–...

– ولقد قررت أخيراً

– ...

لم أستطع أن أعقب على كلامه عبر الهاتف. صوته اللاهث أكد لي بأنني أمام بركان ولذا آثرت سماعه لعله يفضفض عما يجول في خاطره ويرتاح أما هو فبقي يسترسل في الحديث غير آبه بسكوتي:

– آلاء. لن أخفي عنك هذا السر. إن كل البنات اللواتي رأيتهن أو درسن معي مختلفات عنك. بصراحة أحس بأنهن تافهات. عفواً، أقصد تفكيرهن سطحي ومحدود أما أنت. أنت شيء مختلف تماما. لم أكن أعتقد بأني سألتقي في حياتي بفتاة تفكر بهذا العمق، تتكلم بهذا الرقي، تتكلم اللغات الأجنبية، تملك كل هذا الإحساس المرهف، وتكتب الشعر و...

– نورس، على رسلك. أنت تبالغ كما أنه ليست كل البنات

تافهات ولست...

قاطعني:

– بلى، بلى. أنت مختلفة. فتاة مختلفة تماماً.

دخلت في الخط السكرتيرة فضيلة تطلبه فلم يجد نورس بداً من قول آخر كلماته حتى لا يحرجني معها:

– آلاء. لدي رجاء، من فضلك أريدك أن تفكري فيما سأقوله لك لحين مجيئي لمدينتكم.

–...

– أحبك آلاء، وأرغب في التقدم لخطبتك.

– ماذا تقول؟؟؟؟؟

– فكري. أرجوك، إلى اللقاء.

وأغلق السماعة. أغلق السماعة وتركني أنا في حيرة وأية حيرة. ما هذا الذي قاله قبل قليل؟ لا أصدق.. بقيت متجمدة في مكاني لا أستطيع الحراك ولا التفكير. بقيت هكذا لبرهة غير قصيرة. لم أستفق من ذهولي إلا على صوت فريال تصرخ:

– هيه، أين أنت؟

– أتعلمين ماذا!!!

وأعدت لها كل ما دار بيننا من حديث. لم تصدق لكن قالت:

– فكري في الموضوع آلاء.

– فيم أفكر يا فريال. إنه لا يزال طالباً ويسكن في مدينة أخرى والأهم يصغرني بثلاث سنوات، ونحن كما تعرفين أناس مسالمون لن أستطيع تحمل كلام عائلته وتلميحاتهم التي قد تكون جارحة.

– لا أدري. أوافقك الرأي، لكن مع ذلك فكري.

– أعلم أنه شخص رائع لكن يصغرني بثلاث سنوات يا فريال.

– أعرف ذلك. أنا أقول لك فكري حتى لا تندمي فقط.

– وأنت ما رأيك؟

– لا أعلم. بصراحة فارق السن مع الرجل يحرج أي امرأة، لن يرحمها الناس فمنهم من سيقول: تزوج أمه أو مسكين لو تزوج فتاة أصغر منه أفضل له أو أو... كلام كثير بعضه سيكون جارحاً لن أكذب عليك.

– ...

– فكري. فكري آلاء. لا أريد إخافتك لكن فكري حتى لا تندمي.

– لا أدري. أجد القرار صعباً.

– انظري إلي. إن أعجبك وافقي وحاولي تحمل نظرة المجتمع لك.

– يعجبني. طبعاً معجبة بشخصيته. إنه شاعر يا فريال. لن يحبك شاعر إلا مرة في العمر ولن تحصلي على هذه الفرصة بتاتاً. شاعر يا صديقتي. شاعر.

ورغم روعته كشاعر وخصاله المميزة كرجل لم أستطع اتخاذ القرار. تسلل التشتت إلى عقلي. مرت الأيام عليّ كالدهر لم يقطع ثقلها إلا مجيء نورس. لم أحس بوجوده. كان يقف مبتسماً أمام باب مكتبي وهو ينظر إليّ. قال:

– صباح الخير.

لم أتمالك نفسي. أهذا صوت نورس أم أني أتوهم ذلك؟.. هل طول التفكير في موضوعه جعلني أتخيل صوته؟.. رفعت رأسي غير مصدقة. مفاجأة غير متوقعة وتوقيت خطير. حاولت أن أتماسك وقلت:

- صباح النور.
- أيمكنني الجلوس آنسة آلاء؟
- آه... (استغربت كلمة آنسة)
- أيمكنني الجلوس آلاء؟
- طبعاً. طبعاً، يمكنك الجلوس نورس.

هذه ثاني مرة يحضر نورس إلى مكتبي رغم المدة غير القصيرة التي قضاها معنا في الإدارة. ما أزال متفاجئة.

بدأ بالحديث:

- كيف هي أحوالك؟
- آه، من، أنا، بخير.
- حقاً، أما أنا فلست بخير.
- ...

نظر إليّ بتمعن شديد ثم قال:

- اشتقت لك.
- ماذا!!!
- أقول اشتقت لك آلاء.
- شكراً (جواب غبي، صح!!).
- ردودك غريبة. ماذا هناك؟

– ...

– حسناً. لن أعلق على أجوبتك. هل فكرت آلاء فيما قلته لك عبر الهاتف؟

– فكرت.

– وماذا قررت؟

– بصراحة.

لم يدعني أكمل، بل سارع بالقول:

– آلاء. أرجوك لا تقولي بأنك غير موافقة.

– نورس، على رسلك. دعني أشرح لك بعض التفاصيل التي لم تنتبه لها كرجل محب. أنت شخص رائع وتتمناه أي فتاة لكن فارق السن الذي بيننا يقلقني.

– لكن أنا لا يقلقني، بل لا يهمني أصلاً.

– نورس، أرجوك.

– بل أنا يا آلاء من يرجوك.

– ونظرة المجتمع.

– لا تهمني.

– أما أنا فتهمني. لن يرحمني المجتمع بدءاً بأسرتك.

– أنا راض فمِمَّ الخوف؟

– الفكرة ليست أن ترضى وبذلك ينتهي المشكل. مجتمعنا ليس متعوداً على زيجات مثل هذه.

– هذا قراري يا آلاء ولا دخل للمجتمع فيه.

– أعرف لكن أسرتك ستعترض و...

– آلاء

نظرت إليه جيداً فوجدت هناك رجلاً عشق بصدق حتى أعماه الحب عن رؤية واقعنا الاجتماعي المفروض علينا شئنا أم أبينا. تنهدت. تأكدت أني لن أستطيع إقناعه بوجهة نظري وأن رفضي ليس لشخصه، بل بسبب الظروف مع ذلك حاولت:

– أرجوك نورس، فكر في الموضوع من زاوية مختلفة يعني دون إدخال المشاعر في الحسبان.

– حقاً، لِم لا تفكرين أنت مجددا في الموضوع. لِم تطلبين مني أنا ذلك آلاء.

– لأنه يجب أن تفعل ذلك، أرجوك.

وقبل أن أكمل عبارتي دخل مواطن يسأل عن ملفه فقطع وجوده حوارنا. قدمت للمواطن المعلومات التي يطلبها ثم رحل. بقي نورس واقفا ينظر إليّ. لم أجد ما أقوله له ولا حتى لنفسي. نفسي، لو يعلم أني أنا صاحبة الحظ العاثر فحين يحبني شخص فيه كل الميزات الرائعة في الرجل وأيضاً شاعر أجده يصغرني بسنوات سيخنقني بها المجتمع لو قبلت. لو كنت أستطيع التحمل لقبلت لكن.. يا لهذا الحظ السيئ الذي يلف كل علاقة جادة لي. طأطأت الرأس وعندما رفعته وجدت نورس لا يزال يحدق بي وينتظر مني جواباً يرضيه:

– آلاء، سأذهب وأرجو أن تفكري فينا حتى يمكنك تجاوز المشكلة .

– كيف؟

– بالحب.

– أنت اليوم تحبني لهذا ترى بأن السن لا يمكنه أن يقف عقبة في سبيل سعادتنا لكن بعد سنوات من الزواج سيختلف الموضوع ويصبح كل شيء عادياً حتى حبنا وعند أقرب مشكل ستندم على قرارك وتقول: ماذا فعلت بنفسي، وقد تقولها لي، ما يدريني، خائفة من هذا الاحتمال لأني لن أستطيع التحمل.

– أنت غير واثقة من حبي لك.

– لا، الأمر ليس كذلك.

– وإذن.

– نورس، أرجوك لا تصعب عليّ الأمر أكثر.

تنهد ولم يجد بداً من تأجيل الحديث عن الموضوع حتى يفكر كلانا من جديد فقال:

– آلاء، سأغادر...

–...

لم أستطع أن أقول له: لا تذهب، ابقَ، مع السلامة، وداعاً، ولا حتى إلى اللقاء.. كان الصمت هو الجواب، وربما كان هو أفضل جواب في موقف مثل هذا، لا أدري.

***

وصلتني اليوم رسالة. بعث بها نورس على عنوان الإدارة. حملتها لي فضيلة وهي تضحك:

– لديك رسالة آلاء. تبدو رسالة خاصة.

– ماذا؟؟؟، مستغربة.

– أقول رسالة خاصة يا بنت.

– هاتها يا شريرة، ولم الابتسام؟

– لا أعرف، ربما لأنه أول مرة تصل رسالة خاصة إلى موظفة.

فتحت الرسالة. وجدت فيها كلمات أسعدتني وأحزنتني في ذات الوقت. انتبهت لشيء جميل بالرسالة. طبع نورس صورة طفلة جميلة تحمل وردة حمراء بالوجه الثاني للورقة وكتب على الوجه الأول خاطرة مؤثرة – ألم أقل لكم إنه شاعر.. شاعر زاده العشق روعة –:

–.....؟

ناقوس يدق في عالم النسيان
يحرمني من سكينتي الأبدية
ويدق في قلبي الصغير...
فأسأل نفسي عن حلمي الوردي
أأجده في شظايا قداستي؟
أم إنه سيتحطم تحت صنم الخجل
صنم من أرجوان...
فأسأل العيون علها تجيبني
وأرنو من قدري زاحفاً فيرميني
وتحملني النسمات إليك فضميني
إذ ذاك شأنك!
فكوني كالطوفان...

متى شئت أبحرت في عينيك
متى شئت حكيت للنوارس عنك
كوني كالبركان...
فإن ذاك لا يعنيني
وسيمفونيتي باقية إلى الأبد
في ذاكرة وريدي
يغنيها الزمان
سيدتي...
لا أعرف من أنا فدليني
ولا أعرف من أنت فعلميني
قبل أن أحمل حقائبي
وأندثر في بؤس
بين الحيطان...
عندها أكون قد جنيت على ناقوسي
وكبلت المنايا بقيود الأشواق
وأستحيل في لحظة جنون...
إلى بحر يغرق الدنيا
بدمع أزرق وظلام يعميني
فلا أرى نجوم السماء
وأحزن عن شموع بها أحرقيني
فلا تطفئيها لأراك في جفوني
وحتى تتذكريني

اسمعي صوت ناقوسي
الذي سيبقى يدق.. يدق
في عالم النسيان...

تحياتي القلبية:
نورس

وأطوي الرسالة. ها قد ترك لي من جديد مهمة العنونة. أطيل النظر إلى الطفلة المبتسمة لي. نورس، أنت تمزق شرايين قلبي بسكاكين لا مرئية لتسيل دماً أحمراً، وهذا النزيف سيميتني مع أنه قد يحييني لكن الحلم الجميل بقي حلماً والواقع المر حاصل مهما كان بشعا فهل يا تُرى تَرى هذا البون بينهما؟.. في النهاية، لا أملك إلا أن أقول لك: إنك عاشق رائع حتى إن لم يتحقق حلمك معي.. ومهما حصل، ستبقى كذلك...

***

ها قد مرت عشرة أعوام على حكايتي مع نورس..

وذات ليلة، جال بخاطري فكرة إعادة ترتيب أوراقي القديمة المتناثرة داخل درج الياسمين. وجدت بين الأوراق ظرفاً بداخله رسائل وخواطر. نثرت محتوى الظرف فوق الطاولة، وبدأت في قراءة الرسائل، فلم أعد أنا.. لم أدرِ ما حدث لي.. وإليكم القصيدة أو بالأحرى النتيجة:

– ونثرت العمر نثاراً...! –
وبعثرت أوراقي...

أوراقي القديمة
بعثرت معها رسائلي
فبعثرني ذاك الشوق، ذاك الحنين
معه الرغبة والحرمان...
بعثرني ذاك الإنسان
بعثرتني القصائد
والخواطر الحزينة
بعثرني ذاك الإحساس
بعثرني...
فنثرت العمر نثاراً
ما بقي لي من بعدك دار
لأحتمي بها من صقيع الأفكار
ها قد مرت عشرة أعوام
هل أصدق..؟؟؟
لا أصدق..!!
ولا أصدق أن يكون اللقاء تمهيداً للفراق
وأن يكون وصولك مقدمة لرحيلك
وبعد عشرة أعوام، لا أجد غير نورسك
لأحكي له عن ندمي
ولا أجد غيرك يا ناقوس لأدق عليه
فهو ذكرى منك..
لكن هل يصلك صداه؟؟...

وآه...
أتذكر...
إنه ناقوس من عالم النسيان
لم كل هذا يحدث لي؟؟؟...
ولم كل هذا البكاء؟؟...
وكل هذا العذاب
وكل هذا الحب
وكل هذا الاشتياق
وكل هذه الرغبة الجامحة
كفرس شارد...
ولا أسمع إلا صدى آهاتي
ولا أرى إلا بقايا قلب مذبوح
ويا آلاء...
ذاك العاشق قد رحل قبل أعوام
رحل...
رحل...
أكررها لتعي آلاء ما أقول
لعلي أفيق من الأوهام
قد بعثرتني الأوراق والأعوام
ورسائلك القديمة
بعثرتني...
حين فضفضت لأعز صديقة "دعاء" على الهاتف، قالت لي:

– قد أصبحت يا آلاء شاعرة متمردة.

فقلت في قرارة نفسي: إنها لا تعي جسامة ما حدث داخل أعماقي.. إنها لا تعرف لكن لِم ألومها فهي ليست أنا على كل حال.

– هكذا هو الحب يا عزيزتي.. هكذا هو الحب.

– ...

وراحت تواسيني حين تأكدت أن الأمر أعقد مما توقعت. فهل فعلا هو هكذا الحب؟؟.. وكتبت مساء:

– منتهى الحب...–

جاء الحب...

رحل الحب...

هو هكذا الحب

ضيف خفيف الظل

الحب يا عزيزتي

لا يحب أن يمكث طويلاً

لا يحب أن يقيم للأبد

يحب أن يتحول إلى أدب

لذا هو ضيف خفيف الظل

***

هو كبدلة سموكن

مهندمة..

لا يحب أن يلبس طويلا حتى لا يستهلك

لا يحب أن يكون مثل كل البدلات

***

الحب يا عزيزتي
مثل جنتلمان أنيق
كلامه قليل
منمق جميل
محبب لقلب يريده أن يطول
لكنه لا يدوم
هو هكذا الحب...

***

هو هكذا الحب
وإن كان غير هذا
فهو ليس بحب

***

جاء الحب...
رحل الحب...
شكرا للأدب
أن حفظ لنا الحب
ولو في قصاصات منسية
ولو داخل ذاكرة غير مرئية
يا عزيزتي...
بماذا أواسيك؟؟؟؟....

هو هكذا الحب...

***

أذكر ذلك الصباح الشتوي جيداً. كنت أتحدث مع فريال عن مراسلات إدارية وصلتنا للمكتب عليها إمضاء نورس. أخبرتني أنه قد أصبح شخصية مرموقة في مدينته. وأنها تتواصل معه بين الفينة والأخرى. استغربت ثم صرخت:

– ما زلت تتواصلين مع نورس ولم تقولي لي.

– ولِم أقول لك آلاء، كما أننا لا نتواصل دائماً أي قد تمر سنة أو سنتين دون أن يكلمني. ماذا بك؟

– لا شيء. كأني لم أقل شيئاً.

– أفضل لك وله.

– ...

– قد كان يسألني عنك في كل مرة نتحدث فيها وأنا أقول له بأنك بخير.

***

نورس...

قد كنت تجربة حب غير عابرة في حياتي، غير عابرة أبداً.. قد كنت بحق عاشقاً رائعاً، وقد كانت أيامك بحق منتهى الحب والغرام لأنه نادراً ما نجد عشاقاً يتركون أثراً على جدران القلب.. يتركون حقاً ذكرى حلوة..

– تمت –

يوم: 27 نوفمبر 2008، على الساعة: 22:00 ليلاً.

***

جمعت الأوراق ثانية. أعدتها إلى داخل الظرف. وأحاول جمع شتاتي لكن هيهات أن أستطيع. انتابني هذه الليلة بسبب قراءة قصة "منتهى الحب"، واجترار أحداث حكايتي مع نورس إحساس غريب شبيه بذاك الإحساس الذي تملكني عند متابعتي للمشاهد الأخيرة لفيلم "The Last Samurai" للممثل "توم كروز". الإحساس مزيج بين الكبرياء والضعف، هو كاللحظة الفاصلة بين خط النهاية وتلك الرغبة الإمبراطورية للمحارب في عيش حياة حقيقية...

قد تتساءلون: بعد هذه السنوات، هل أنا نادمة على رفضي له؟.. أصارحكم القول: نعم، ندمت لكن كما تقول الست: وتفيد بإيه يا ندم، يا ندم...

سامحني نورس...

أقولها لك الآن فرغم بعد المكان وحتى وإن مر على حكايتنا عشرون عاماً فإن تجربة الحب تلك التي عشتها أنت بإخلاص واحترمتها أنا بصدق، كانت تجربة استثنائية في حياتي لكن كما يقال: الغواني يغرهن الثناء، خاصة عندما يكن في سن العشرين، وذلك ما حدث لي بالضبط، لن أنكر.. غرني الصبا والقلب المفتون بالحياة المقبلة.. هل أنكر.

***

الآن، وبعد تجاوزي سن الأربعين وبقائي وحيدة..

الآن، وبعد معاناتي معك فارس، أتخذ قراري الذي ترددت فيه كثيراً:

سأكتب...

نعم، سأكتب عن هذا الرجل الذي عشقته حد الإدمان لأني الآن فقط وعيت معنى العشق الحقيقي.. سأكتب عنك فارس لأن حكايتي معك قد جعلتني أفهم أخيراً حقيقة معاناة نورس معي...

ها قد أحببت كما أحبوني.. ها أنا أعاني بسببك فارس كما عانيت بسببي نورس..، فهل ستشفع لي عذاباتي معك فارس لتقبل أن أسدد بها كل ديوني القديمة مع القدر والزمن وأرتاح.

نورس، سامحني لأني لم أستطع تحدي مجتمعنا لأجلك.. سامحني لأني لم أقدر حقيقة حبك الرائع لي.. سامحني لأني اكتفيت باحترام حبك رغم كل ذلك العشق الجارف الذي حملته لي.. سامحني...

***

سأكتب...

سأكتب عنك فارس، عنا، عن حكايتنا لعلي أتحرر منك...

سأكتب لعلي بذلك أكون قد قدمت للحب أثمن قربان يمكن أن يمنحه عاشق لتعتق روحه فترسل إلى أرض السلام.. سأكتب لعل دفاتري المثقلة بالآلام تقبل كصك غفران للخروج من متاهة حبك.. سأكتب، لعل القصيدة تنظم آخر بيت فيها فأنفض معاناة حبك مع آخر حرف روي، لعل الخاطرة تكتمل سطورها فأنتهي أنا مع آخر كلمة فيها.. سأكتب، لعل الكوامن تغادر الأعماق فتسكن مدارات الماضي وأرتاح من هذا الوجع الجاثم فوق القلب وفي الذاكرة.

سأكتب لأبوح بصمتي الذي تطول أيامه أسبوعاً بعد آخر..

سأكتب لأبوح بعشقي الذي ثار بعد خمس عشرة سنة من جديد كبركان خامد لا يريد أن يهدأ..، لا يريد يا فارس بل حممه تجعل خلايا دماغي تغلي..، تغلي وستصيبني بالجنون...

سأكتب لأني إذا لم أهذِ على الورق سأهذي لا محالة أمام الملأ.. أكُل العشاق مثلي أم إني حالة إدمان خاصة يصعب علاجها؟.. يا إلهي، ساعدني، ولا أعترض، عاقب هذه الغجرية على كل حماقاتها التي ارتكبتها في الماضي، وعلى كل خطاياها لكن اغفر لها حماقة عشقها لهذا الفارس فهي لم تعرف متى وكيف حصل لها ذلك التغلغل العاطفي الذي أنبت حُبّاً نما في حين غفلة منها كشجرة ليلك برية؟..

***

فارس..، أرجوك، غادرني لأن غيابك يقتلني حين لا تراك العين كما أن حضورك يميتني حين تطاردني بنظراتك العاشقة...

أعشقك، لِم أنكر؟..، أنا لا أحبك فقط، بل أموت عشقاً في كل تفاصيلك، وذلك ما يزيد من معاناتي في حبك، ذلك ما يزيد.. هل تعلم فارس لم حبي لك كبير، كبير؟.. الأمر لا يتعلق بكونك رجل جنتلمان – مع أنك كذلك –، لا، المشكلة لا تكمن في قوة شخصيتك أو في طيبتك أو غيرها، لا، المشكلة أن حبك يا فارس أتى في زمن مفصلي، خطير بالنسبة لآلاء.. حضر حبك في فصل الشتاء، ونحن كما يقول الكاتب "محمد جلال عبد القوي": كائنات شتوية.. أنت لا تعلم أن حبك جاء في لحظة ضعف قوية، جد قوية.. حضر حبك في زمن الهشاشة لذا تجده اجتاح الأعماق

كسيد الأجواء حين ينقض على فريسته.. لذا تجده يتدفق كمياه سيل العرم..، يتدفق بشدة ولا يتوقف.. يتدفق كشلالات نياغرا ولا يرحم.. هل بوحي بعشقي هو بداية رحلة العلاج منك أم أن ما أفعله لا يجدي نفعا، لا يجدي البتة، لا يجدي؟؟؟...

***

يا أنت، هل ستقتلني بحالتك تلك، ولِم؟.. لِم تستمر في حبك لي وبعدك عني، وقربك مني، وخوفك علي..، أتريدني حقاً أن أصاب بالجنون؟.. غادرني، أرجوك غادر جسدي وروحي يا سالب الروح، غادر أعماقي.. غادرني يا من تسكنني بجنون، وتميتني بدفئك الذي يغمرني في البعد، وتقتلني بنظراتك العاشقة التي تحوي كل حنان العالم في القرب.. آآآآه، منك، كم أسلحتك مدمّرة، جميلة ومدمّرة.. إذن، لأكتب لعل جذوة حبك تنطفئ أثناء البوح، لأكتب لعلي أكرهك بكل حب أثناء بوحي بعشقك يا أيها المستبد، الحنون، الجلاد، الطيب.. لعل!!!...

سأكتب قبل أن ينفجر رأسي كبركان فيزوف فيدمر تلك الأعماق التي أصبحت هشة، جد هشة بسبب حبك.. سأكتب، فلم يعد يعنيني إن كان ما سأكتبه كلاماً موزوناً أم هو هذيان، مجرد هذيان، هذيان.. أعرفت الآن، كم حبك قاس جداً، قاس؟.. وكم أرغب في الكف عن التفكير فيك؟.. تعبت منك، تعبت يا من عشقتك حد الإدمان، تعبت.. تعبت...

آآآآه منك، ومن هذي المشاعر...

***

سأكتب...،

لقد قررت، بعد تفكير طويل.. نعم، قررت أن أكتب الحكاية، خلاصة الحكاية ومن البداية.. قررت بعد معاناة طالت لشهور وشهور نظمت فيها من وجعي أشعاراً وخواطر تصلح أن تجمع في كتاب.. قلت في قرارة نفسي بعد يأسي: سأروي حكايتي..، ولِم لا أفعل، ألم تصبح مجرد حكاية.. مجرد حكاية من الماضي القريب، وهذا أمر بقدر ما يحزنني أرغب في التعامل معه بشكل حيادي – إن استطعت طبعا!!!..– حكايتي.. آه، من حكايتي..

حكايتي يا سادة في الحقيقة شرحها لا يطول، شرحها قصير، قصير لكنه مؤلم، موجع.. حكايتي قصة جديدة قديمة في دفتر العشاق، قصة حب بلا أمل..، حتى هذه اللحظة هو كذلك.. وأبتسم: هل ما زلت أنتظر معجزة من السماء لتصبح نهاية الحكاية مثل حكايا الجدات؟؟؟.. وأضحك يأساً.. كم أبدو أحياناً غبية، نعم غبية.. وأنا بالفعل غبية لأني عشقتك.. غبية لأني ما زلت أصدق كلام عيونك...

أووووه..، آسفة، يبدو أنني انفعلت مع حكايتي لدرجة نسيت أن أعرفكم بنفسي. اسمي: آلاء. موظفة بإدارة حكومية.. زملائي يرون بأنني امرأة جادة أكثر من اللزوم، وشخصية مزاجية مع أني لا أدري لماذا؟، فأنا لست من برج الجوزاء!. خمرية اللون، متوسطة الجمال – وهذا ليس ذما ولا يعتبر مدحاً كما يبدو، دعنا نقول بأنه هو مجرد إقرار واقع.. –، امرأة محتشمة، كوني أنحدر من أسرة جزائرية عريقة، وهو ما يعني ضرورة ارتداء الملابس اللائقة بتقاليد

العشيرة. وفي الحقيقة هو أمر جيد لأنه يجنب الفتاة في مدينتنا مشكلات عدة أهمها: التحرش العلني وقلة احترام الشباب الطائش.

منذ شهور، ولجت عقد الأربعين، وهو ليس أمراً سيئاً لأن حلاوة عقد الأربعين كما يقولون أنك تصبح ناضجاً، يغادرك طيش الشباب لكن إحساسك بأنك ما زلت شاباً يستمر معك. عازبة، نعم ما أزال عازبة رغم كثرة الخطاب وحتى العشاق.. عازبة، ولا أعتقد بأنه كان قراراً صائباً كثيراً كما لا أجده خياراً سيئاً في بعض الأحيان فأنا لست ضد مؤسسة الزواج لكن كأي فتاة متمردة تملك أحلاما كثيرة تود تحقيقها بقوة ستؤجل فكرة الزواج لسنوات لا محالة، وأنا لست استثناء القاعدة كما يبدو..

بعد التخرج من الجامعة، حلمت بأن أتوظف ويصبح لي راتب لأستقل مادياً ولو بشكل جزئي عن أبي. وحين توظفت، حلمت بأن ألفّ العالم كالرحالة ابن بطوطة، وهو ما فعلته، وما أزال أمارسه بجنون هستيري. وحين ركبت الطائرة عشقت صوتها وصخب قاعات الترانزيت الباردة ومعاقرة المدن. كنت أحب مدني الجديدة تماماً كما يحب الرجل حبيبته التي تركها وحيدة هناك حيث جبال الجليد، والكهف البارد، والموقد المتجمد.. إنه شغف العشق الذي لا يمكنك تفسيره لأحد مهما حاولت عبر الكلمات..، وبسبب سحر المدن الخفي، أصبحت أعشق الحرية، ولذا أؤجل فكرة الزواج حين تأكد لي بأنه قد يعيق انطلاقي، وهكذا أصبح الارتباط سجناً لا أريد دخوله بسبب مطامعي البريئة.

أصبحت آلاء تتفنن في رفض الخطّاب الواحد تلو الآخر،

ولفض العشاق الواحد تلو الآخر. في الواقع، أنا لست سعيدة بتصرفي هذا مع أنه قراري الذي اتخذته بسبب خياراتي.. في النهاية، تلك خياراتي وعلي تحمل تبعات قراراتي.. لن أنكر، بعض الخيارات جلبت لي السعادة وأخرى فعلت العكس.. سأخبركم أمراً هاماً: في ذاك السن الصغير وحين تملك شخصية متمردة مثلي يكون التنازل أو تقديم التضحيات فكرة مرفوضة، مرفوضة تماماً.. ستقول: ولِم أتنازل والحياة تقبل علي..

عاماً بعد عام، ودون أن تنتبه ستجد بأن هناك مارداً أو غجرية قد كشرا عن أنيابهما يصارعانك ليبقيا على قيد الحياة داخل الأعماق.

في الواقع، هذا ما حصل لي. عاماً بعد عام، أصبحت تلك الغجرية التي بداخلي تزداد جبروتاً وقوة وتجذراً، وأنا أزداد لها طاعة واستسلاماً... عاماً بعد آخر، أصبحت أتلذذ بالنظر إلى دموع عشاقي فأنا الملكة والكل يريد رضاي... لم أنتبه أنه أيضاً عاماً بعد عام كنت أتحول من فتاة مشاكسة إلى امرأة ناضجة قوية تسحق كل شيء أمامها لتحقق أحلامها أو ترضي غرورها، وأنصحك تفادي الاصطدام بغرور امرأة تملك شخصية قوية فهي تصبح شريرة، وجد غبية أثناء الرد عليك...

هذا العام، كم أحلم – حتى وإن كنت قد تجاوزت الأربعين – بأن أكوّن أسرة.. لم يكن هذا الأمر يعنيني من قبل لكن هذا العام أجده يلح داخل أعماقي، وبشدة.. لن تتخيل درجة الإلحاح؟؟.. إنها درجة مدمرة كإعصار كاترينا...

وفجأة، وسط هذا التخلخل النفسي جئت أنت لتحدث ثقباً عاطفياً تتغلغل منه إلى القلب المحكم إقفاله.. جئت – على حين غفلة من العقل – تزلزل عرش هذه المرأة الناضجة جداً.. جئت في زمن استثنائي حيث أصبحت الآهة عميقة، والقلب هشاً، سهل الانكسار رغم القوة والجبروت والرغبة الشرسة في تحدي الحياة.. جئت لتشعل الحرائق، فحين نظرت إلي تلك النظرة الغريبة أحسست أنها تشبه نظرة طبيب نفسي ينوم مريضه مغناطيسياً ليعالجه من حرمانه العاطفي.. ماذا حدث حتى انقلب حالي من حال إلى حال عقب تلك النظرة، ماذا حدث؟؟؟.. ماذا فعلت ذاك الصباح الشتوي حتى أدخل في دوامة العشق دون مقدمات، لا أدري ماذا فعلت؟؟؟.. ما أذكره جيداً هو أنني ذاك الصباح الشتوي، أحببتك.. أحببتك لحظة صرخ العشق: جنون.. في الحقيقة، هذا ما حدث بالضبط...

وآه..، ها هي ألف رصاصة تفجر دماغي فيتطاير أشلاء أشلاء.. أنهض من مكاني لأصنع فنجان قهوة لي لعل الألم يزول. بدأت غرفة التفكير تعمل وأنا أشرب القهوة المرة الساخنة: لِم أستمر بالكتابة كالمجنونة ألاحق مشاعري الهاربة كشرطة الحدود، لم لا أجلس وأحاول أن أهدأ لعلي أستطيع كتابة قصتي لأتحرر من سجن عشقك. وأتأكد مجدداً من صحة مقولة الفيلسوف "نيتشه": "الحياة نص أدبي كبير".. إذن، لأكتب نصي الأدبي، فبالنهاية، تلك حياتي، وحكايتي جزء من حياتي...

***

حبك يا فارس غُرس كرمح حاد في أضعف نقطة بقلبي

الصغير الذي لم يعشق حقيقة من قبل كما يبدو، وتلك كانت مصيبته... هذا القلب الذي صدَّق كلامك حتى أنه أصبح يردده كترانيم صلاة... كم كان غبياً ذاك الصباح الشتوي حين نظرت إليه بحنو فابتسم لك ضاحكا معتقداً أن أوان الأمان قد آن.. وطيلة أسابيع، كان ينتظر مجيئك كل صباح كالأبله وتحضر، لتبدأ في محادثته وهو يصدِّقك.. يصدِّقك بكل إخلاص عاشق..

إن حكايتي كما قلت لكم قصة حب من الماضي استيقظت فجأة بعد سبات طويل، استيقظت كمارد ثائر لتحدث انقلاباً مدوياً في الأعماق ليبدأ فصل جديد لحكاية حب قديمة عمرها خمس عشرة سنة.. أذكر أنه مساء ذاك الصباح الشتوي كتبت بكل فرح عنك. كتبت: إني معك اكتشفت أبجدية جديدة.. إنني معك، أتعلم لغة مختلفة جديدة، فمنذ اللحظة التي نظرت فيها إليّ وابتسمت بحنو، وأنا أطير فوق السحاب.. أضحك ثم أبكي بلا أسباب.. أكتب ثم أكتب دون توقف عن حكايتنا التي تطلب استئنافاً مستعجلاً من محكمة الحب العليا، لعل.. إنني منذ تلك اللحظة وأنا أموت وأحيا.. أرقص حزينة على وقع طبول إفريقية بعدها أنتحر أنا وقلبي ليكف عقلي عن الصراخ علينا.. منذ اللحظة التي نظرت فيها إلي وابتسمت بحنو وأنا سعيدة، تعيسة.. سعيدة بك وتعيسة بي..، تعيسة بحالي لأني أريدك أن تكون لي وحدي لكن كيف؟.. كيف، وأنت ملك امرأة أخرى؟.. كيف لي أن أوقف سيل حبك الذي جرف كل شيء يجده في طريقه نحو قلبي كسيل العرم؟؟؟.. هل تكفيك كيف يا فارس لتتركني ويتركني حبك في حالي؟.. كم أود

أن أعود وحيدة كما كنت دوماً فهو أريح من هذا الحال.. صدقني، أريح... أريح بكثير.

***

ولن أنكر يا فارس أنني معك اكتشفت عوالم جديدة بداخلي. تعلمت أبجدية جديدة رغم اعتقادي بأن معرفتي – بدرجات متفاوتة – لثلاث لغات غير العربية أمر كاف وأن صداقتي الحميمة مع أبجدية القص والشعر كافية أيضاً لكن يبدو أن أبجديتك مختلفة الحروف والوقع والإحساس وحتى رد الفعل معها، ف:

معك... ،
اكتشفت أن النورس قد يبحر مساء
معك، اكتشفت أن الجليد قد يذوب شتاء
معك، اكتشفت أن الرماد قد يمسي جديداً،
فيغدو جمراً أحمر...،
عنقاء أسطورية، ساحرة تحلق عالياً
معك، اكتشفت أبجدية جديدة
فأصبحت أغرد مع العصافير،
وأهمس للأسماك...،
وأبوح بنوحي للبوم
معك، اكتشفت أن في الأعماق جزراً سرية لم أطأها بعد
معك، تصبح المدينة خانقة،
والمروج خانقة
بل، كل الأماكن خانقة

معك، لا ألهث إلا نحو مكان واحد
جزيرة حبنا لأستنشق أنفاسك اللاهثة مثلي، وأتنفس هواك،
فأخبرني:
ما سر كل هذا الحب؟...
ما سر كل هذا العشق؟؟...
أتراني حقا متيمة بعينيك الساحرتين.

***

معك، أعيش ألف قصة حب
معك، أعيش ألف ساعة فراق
معك، أعاني، ثم أعاني، ثم أعاني
لم حبك إعصار هادر؟؟...
يدمع العين، ويفرح القلب،
لم؟؟...
لِم أنا متيمة بك لهذه الدرجة، لم؟؟؟...
أجبني، لم؟...

***

لقد أعادني حبك يا فارس إلى عالم الكتابة. عالم هجرني منذ فترة رغم تعلقي الشديد به. عالم كم أعشق التوغل فيه رغم مجاهله المرعبة. أعادني حبك سيدي للقلم، لأكتب خواطر وأنظم أشعاراً. عدت من جديد لأكتب بشكل جديد، وبأبجدية جديدة – فلكل قصة حب لغة خاصة –.. عدت لأكتشف أبجدية حكايتنا. هل أخبرك أمراً يا فارس؟ لقد أصبحت مريضة بك، أصبحت لدي حالة

إدمان.. لقد أدمنت يا فارس... أدمنت:
مذ ذاك الصباح الشتوي، وأنا أهذي
مذ ذاك الصباح الشتوي، وأنا أنام ولا أنام
مذ نفذت إلى تحت جلدي، وعشقتك، وأنا لا أنام
يا من لملمني ثم سحقني كبحر
يا من احتلني كقيصر...
وسجنني كصقر...
رد لي هدوئي وسكينتي...
رد لي رتابة أيامي وطمأنينتي...
رد لي قلبي، فأنا مذ عرفتك، وأنا أهذي
وأنا أكتب دون توقف
وأنا أذوي كفريسة تحتضر،
فقد جثم حبك فوق صدري كوحش كاسر
يحطمني، ويحطم كل ما هو أمامه، كل ما هو حوله...،
يحطم كل ما يمكنه أن يمنعني عن حبه
ثم تطلب المزيد!!!؟؟؟...
وهل هناك مزيد؟
لقد أحببتك، فهل هناك شيء أكثر من الحب...،
لتأخذه؟؟..
أكثر من القلب لتأسره...
أكثر من الذاكرة لتحتلها...
أكثر من الأيام لتسكن فيها...

هل هناك أكثر؟؟؟!!!...

لا أعتقد...

***

كيف الحال؟.. يا من سكن الذاكرة دون دفع المقدم أو الإيجار، ولم يكتف بل هو كل صباح يفتعل المشاكل في الأرجاء ويزعج كل الجيران، ولم يكتف.. لكن لِم كل هذا يا فارس؟.. لِم منذ مجيئك، العقل والقلب متخاصمان؟.. لِم منذ مجيئك، الصمت والبوح لا يتكلمان؟.. لم منذ مجيئك، العشق والصبر غاضبان؟.. باختصار: بسببك، الفوضى تعم المكان، والحال غير الحال، فكيف الحال؟

منذ مجيئك، وأنا أعيش حالة ازدحام

منذ مجيئك، وأنا داخل دائرة التوهان

منذ مجيئك، وعقلي يعاقر الهذيان

منذ مجيئك، وأنا امرأة في حالة حب.

***

صدقني فارس

منذ مجيئك، ورأسي يؤلم

منذ مجيئك، وقلمي يكتب، يتكلم

منذ مجيئك، وقلبي الصغير يهذي، ويتألم،

والذاكرة خائفة، لا تتحمل،

تخشى النسيان...

هل عرفت الآن، كم أعاني...؟؟؟

كم تعاني المرأة عندما تعيش حالة ازدحام

الأفكار تُشتَّت في الزحام
اللحظات تشل في الزحام
لا قرارات يمكن اتخاذها في الزحام
الجسد يتعب في الزحام
كلي متعب بسبب الزحام
هل فهمت الآن، كم أعاني؟؟...
كم تعاني المرأة عندما تعيش حالة ازدحام، حالة حب.

***

أدخلني حبك عالم الخيال، فأصبحت أكتب بكلمات من المحال.. أدخلني حبك عالم الأوهام. أدخلني عالم أحلام.. عالم رواية "ذاكرة الجسد"، لأعاود قراءتها بعد أعوام وأعوام ليطاردني وجهك في كل كلمة من كلمات الغرام، في كل سطر فيه هيام.. في كل عبارة قد تجعلني أرحل عن عالم الواقع إلى عالم الإلهام.. وآه مما تقوله أحلام، آآآآآه....

وأضع الكتاب جانباً لأرتشف من فنجان قهوتي المرة الساخنة، فألمح عبارة: "تركت السكر جانباً، وارتشفت قهوتي مرة كما عودني حبك، فكرت في هذا الطعم العذب للقهوة المرة، ولحظتها فقط، شعرت أني قادرة على الكتابة عنك".. ضحكت ثم بكيت ثم تساءلت: لم أحوال العشاق متشابهة؟.. لم كل العشاق يشربون القهوة مرة؟...

وأرتشف من جديد من قهوتي المرة..، وأكتب.. اقرأ لها أيضا عبارة: "هل الورق مطفأة للذاكرة؟".. أفكر قليلاً ثم أرد عليها: إنه

يا عزيزتي ليس مطفأة، إنه مقبرة، مقبرة لكل شيء.. إن دفاترنا مقبرتنا لأننا فيها نموت ثم نموت لعلنا نحيا من جديد...

***

آآآآآه...

إنني لا أكف مذ عرفتك عن شرب القهوة، القهوة المرة الساخنة مذ عرفتك، وأنا لا أكف عن قراءة قصائد الحلاج وابن فارض وابن عربي وأبي فراس ونزار قباني ومحمود درويش ووو...

مذ عرفتك، وأنا لا أكف عن التفكير فيك.

مذ عرفتك، وأنا لا أكف عن الهروب من حبك الذي تلبسه المستحيل...

مذ عرفتك، وأنا أعاود قراءة روايات العشق والهوى... البائسة مثلي، اليائسة مثلي

مذ عرفتك، وأنا أراك أنت أنت.

مذ عرفتك، وأنا لم أعد أنا، أصبحت امرأة أخرى لا تشبهني. امرأة حزينة، سعيدة. تضحك ثم تبكي... تهذي ثم تكتب... تسقط ثم تقاوم... ت ثم ت... ت ثم ت...، إلى ما لا نهاية.

مذ عرفتك، وأنا لست أنا،

وأسأل عقلي: هل لهذا الهذيان حد؟،

هل لهذا الصمت المطبق حد؟،

هل لهذا التمزق الذي بداخل أعماقي حد؟،

هل؟؟؟...

ولا أدري لم يتملكني إحساس خفي بأن كلي متواطئ معك،

ولا يبالي بحالي...
وأنا هل أملك إلا الاستمرار في الهذيان،
والكتابة، دون توقف،
دون توقف...

***

إنني مذ أحببتك عانقت الأبدية..، عانقت الجنون..، واللحظات السرمدية، ولأنه عبث أحاول التنصل منك.. عبث، أحاول، أن أستمر في شرب القهوة المرة الساخنة. لذا يجب ألّا تشرب القهوة على عجل كما يقول محمود درويش...

لا تشرب القهوة على عجل، لأنها ساخنة.. لا تشرب القهوة على عجل لأن أبخرتها المعطرة بماء الزهر قد تأسرك فترحل عن عالمك لتأخذك الذكريات الحلوة إلى جزرك السرية، التي لا يعلم أحد عنها أي شيء..، لا تشرب القهوة على عجل، لأنه مع كل رشفة قد يُكتَبُ سطر وربما سطور في دفتر أيامك..، لا تشرب القهوة على عجل، لأنك جالس مع صديقة حقيقية تخفف عنك أحزانك...

تشرب القهوة على مهل، لأن صورتك تتراءى لي على سطح الفنجان..، تشرب القهوة على مهل، لأني أراك حين أراني في الفنجان..، تشرب القهوة على مهل، لأني حين أتذكرك، أعاود قراءة قصائدي عنك فأنسى القهوة وأنسى نفسي وأنسى العالم..، تشرب القهوة على مهل، لأنك تمتزج مع نكهتها فلا أستطيع فصل نكهة القهوة عن نكهة حبك..، والنكهتان لا أحلى..، تشرب القهوة على مهل، لأن القهوة تحب الحضور وتكره الغياب..، لأن القهوة تحب

التأمل العميق وتكره النسيان السريع.. تشرب القهوة على مهل، لأن حياتك كلها قد تتوقف على فنجان قهوة، قد تختصر حلاوتها في فنجان قهوة قدمها لك شخص عزيز..، عزيز جداً.

تشرب القهوة بحب، فأنت حين تحمل الفنجان وتضعه على خدك ثم تطرق بنظرك نحو الأرض، تعرف كم حزنك عميق، عميق.. تشرب القهوة بحب، فأنت حين يتراقص الفنجان مع شفتيك جيئة وذهاباً ثم يبعث زورقك أشرعته القرمزية نحو المجهول، تعرف أنك القتيل لا القاتل، أنك الجريح، لا الجلاد.. تتأكد أن قاتلك تركك وحيدا تتخبط مع جراحك ورحل.. تشرب القهوة بحب، فأنت حين تحاول إحكام قبضتك على أذن الفنجان، تتأكد أنك لا تستطيع لكونك عاشقاً مهزوماً.. ستعرف كم أنت مسكين، كم أنت مسالم في الحب رغم شراستك..، كم وكم وكم...

فارس، إذا شربت القهوة مثلي، على غير عجل، على مهل، وبكل حب، سأتأكد أنك حقاً عاشقي..، ويا ويلي، إذا كنت لا تشرب القهوة أصلاً.. هكذا تشرب القهوة..، هكذا تشرب القهوة...

***

لِم فجأة يا فارس وجدتك، في ذاك الصباح الشتوي، عاشقاً؟..، لِم حين وقفت أمامي وجدتني عاشقة؟..، ولِم أجد المسافة التي بيننا طويلة، طويلة؟.. كم يعذبني هذا القرب الموجع تماما كما يعذبني ذلك البعد القاسي؟.. يا ذاك السر الذي مزَّق الروح ونثر أشلاءها عبر أصقاع الأرض، أحبك..، أحبك ولن أبوح باسمك..، أهيم شوقاً بك، ولا أستطيع الاقتراب منك أكثر مع أنك أمامي

وتنظر إليّ.. تنظر إلي محاولاً رسم الابتسامة على الوجه ليذهب حزني الذي غطى أرجاء الروح.. تنظر إلي وتبتسم لعل ولعل ولعل.. برأيك: هل تكفيني لعل وعسى وربما وحتى؟؟.. لِم يا قلب عشقت المستحيل وهمت شوقاً بالمحال؟.. آه، يا من تسعدني وتزيد من تعاستي كل يوم..، فيوماً بعد يوم، أزداد عشقا.. يوماً بعد يوم، أزداد تعاسة.. وسأكتب فدوائي في دائي، وشفائي بيد أشعاري...

***

حبك يا فارس حقل ألغام، وأنا امرأة تعبت الحروب وتريد العيش بسلام.. تريد حضناً تستطيع فيه النوم دون خوف، دون توجس مما هو آت.. ببساطة، تريد أن تطير كفراشة تلفها الشمس بحنان.. لقد سئمت السقوط والآلام.. لا تعتب علي فارس، أعلم أني اقترفت ذنوباً كثيرة لكنني لم أرتجف يوماً خوفاً من خطاياي البريئة.. أعلم أن الدير سيستقبل هذه الغجرية التي تملك قلب راهبة. إن الرب يغفر الخطايا إذا كنت عاشقاً له بحق، فهل تدري؟.. إن كنت تدري فذاك فيه حرماني منك وشقائي..، وإن كنت لا تدري فالحرمان والشقاء أعظم.. وهل تدري أن حبي لك إثم أقترفه بإصرار ولا أنكره أمام الرب، لا أنكره.. تأكد أني لن أنكره...

***

فارس، أتسمح لي بأن أناديك: يا رجلي،

فأنت رجلي...،

وأنت طفلي...،

وأنت سعادتي وبحر أحزاني،

وأنت أمسي الذي ولّى،
وأنت غذي الذي سيُطل...،
وأنت القسوة المبهمة،
والحنان الذي يحتويني دون ملل،
يا رجلي...، أحبك
أحبك، ولا أخجل أن أحب طفلي الذي لم ألده
لا أخجل أن أحتوي طفلي الذي تاه في صحراء عيوني
وأنت كم تعشق عينيّ...،
عينيّ اللتين تشبهان غابتا النخيل ساعة المطر
لا أخجل أن أحتويك يا طفلي بدفء صمتي،
بنظراتي، بهمساتي
لا أخجل، فأنت رجلي...

***

هل قلت لك إنني منذ أحببتك، وأنا أتحرق شوقاً لرؤية أميرة، ابنتي منك.. منذ مجيئك، وأنا أتوق لأن ألعب معها بينما أنت تنظر إلينا..، ولِم البكاء الآن؟؟؟.. هل لأن الحكاية انتهت أم لأن حلم "أميرة" تأجل ولن يتحقق...

آآآآآه...

وأضع يدي على رقبتي لأستطيع إخراج الآهة..، وألحظ أنني أضعها على عظام رقبتي.. هل أخبرتك أنني بسبب عشقك خسرت قرابة العشر كيلوغرامات.. يا لهذه الحمية الغريبة.. وأحس بحسرة كبيرة.. حقاً، لن تكون أميرة ابنتك يوماً.. أبكتني الفكرة حد

الانهيار، حد الانكسار...

ذاك اليوم، حلمت بأنني أقبل جبين أميرة، ثم جبينك لأنك منحتني أغلى هدية تسعد أي امرأة بها في الوجود.. حلمت أم تمنيت.. في الحقيقة، حلمت وتمنيت. تمنيت وبشدة لكن تلك اللحظة الاستثنائية لم تأت.. لم تأت بعد.. تعبت من أحلامي، ومن أمنياتي، تعبت...

***

طيلة أسابيع، وأنا أكتب.. طيلة أسابيع، وأنا أكتب دون توقف عن حكاوينا، عن سحر عيونك.. طيلة أسابيع، وأنا أكتب عن ضحكنا الممزوج بطعم اليأس.. أكتب وأتساءل: هل هناك مفردات تتحمل فكرة التعبير عن حالنا، حالة الهشاشة التي تنتابنا أو عن حالة الجوع العاطفي التي تعترينا.. بينما أفكر تصرخ قصيدة "إلى التلميذة" لنزار قباني في وجهي لتقول لي إليك الجواب:

"لم تستطيعي بعد أن تتفهمي
أن الرجال جميعهم أطفال"
بل أعلم يا شاعر المرأة أن عاشقي طفل كبير.. أعلم
"كلماتنا في الحب تقتل حبنا
إن الحروف تموت حين تقال"

سأبوح لك: وأنا تعبت من صمته القاتل.. تعبت من نظراته التي تغري بألف مغامرة مجنونة مع ذلك لا يتزحزح من مكانه.. تعبت من كلماته التي تصرخ ولا تتكلم...

"الحب ليس رواية شرقية

بختامها يتزوج الأبطال"
لكن لِم يا قدري لست ساحراً كالشرق، لِم؟؟؟...
"لكنه الإبحار دون سفينة
وشعورنا أن الوصول محال"
ماذا؟...
"هو أن تظل على الأصابع رعشة
وعلى الشفاه المطبقات سؤال"
؟؟؟؟؟؟.....
"هو جدول الأحزان في أعماقنا
تنمو كروم حوله.. وغلال
هو هذه الأزمات تسحقنا معاً
فنموت نحن..، وتزهر الآمال
هو أن نثور لأي شيء تافه
هو يأسنا هو شكنا القتال".

وأصرخ: كفى.. كفاني يا فارس، سأموت اختناقاً بسبب حبك..، وأتأكد الآن أكثر من أي وقت مضى بأنني لن أجني سوى الآلام، وأن الشمس لن تشرق لأجل حبنا.. وأتأكد أن القمر سيشهد عملية اغتيال حلمنا دون أن يرف له جفن.. لن أنكر: ربما كنت أعلم بكل هذا من البداية لكني غامرت. قلت: ربما أفوز في رهاني مع القدر لكن خسائري فادحة. انتصاري الوحيد هو قتلي لروتين الأيام المتشابهة. انتصاري على الرتابة، على الجمود.. انتصاري للشعر، فالحزن هو القطار الوحيد الذي أدخلني قلعة العشق والشعر...

ويختم المعلم:

"حسبي وحسبك أن تظلي دائماً

سراً يمزقني.... وليس يقال"

الآن، وحين عرفت أن صمتي سيطول أمسكت بفنجان القهوة الساخنة لأرتشف ما تبقى فيه. كم تمنيت لو ألتقي بقارئة الفنجان لعلها ترشدني.. فلأتمزق شعراً إذن، لا خيارات، هو درب الخلاص الوحيد...

***

ها نحن بعد أسابيع عشنا فيها لحظات استثنائية، حالة عشق ملائكية، تعلن الأقدار نهاية الحكاية. لن أخف عليك: حبك هو الرحلة الأسرع في حياتي.. أنا العربية المتعودة على التسكع لساعات في صحارى ألف ليلة وليلة كرياضة مسائية للذهن والروح.. اللعنة، يا لهذا الزمن الذي لا يعي معنى كلمة الزمن.. زمن...

أتريد أن تعرف ماذا حصل بالضبط... إليك ما حدث:

بعد مرور شهرين على الحكاية، أحسست بأن فارس متغير. أصبح فجأة متخوفاً مما سيأتي بسبب تعلقي الشديد به... أذكر تلك العشية جيداً ولا يمكنني أن أنساها ما حييت. ذهبت إلى مكتبه لاستشارته كالعادة حول مسالة عالقة في العمل. فتحت الباب ولا أدري لم تفاجأ حتى اتسعت حدقتا عينيه بشكل واضح، فاضح، وتهالك على كرسيه. استغربت ردة فعله. تناقشنا حول المسألة العالقة في العمل وأننا ننتظر رأيه منذ الأمس للبت في المشكلة. نظر إلي ثم قال دون مقدمات:

– لم أعاود الاتصال بك بالأمس لأني كنت في الاجتماع

قلت له محاولة تجاهل تجاهله:

– لا بأس، أردت فقط الاطمئنان على صحتك حين علمت بأنك مريض

حينها رد بثقة غريبة:

– شكراً شكراً، علمت بالأمر من السيدة دنيا، وقد كنت أريد الاتصال بك لكن تعلمين أنه من غير اللائق أن أفعل ذلك بعد وقت الدوام...

نظرت إليه ملياً متفاجئة من رده. قلت في قرارة نفسي: هل يمزح معي أم يسخر مني؟. أمام عذره الغريب ذاك صمت. صمت وأخذت الملف الذي أحضرته معي. وقفت لمغادرة مكتبه. رغبت في الانفجار لكن اكتفيت بعبارة:

– طبعاً، طبعاً. قطعاً هو أمر غير مقبول، لا شك في ذلك.

عدت إلى مكتبي وأنا منهارة، جد متفاجئة، ومهزومة. قمت على الفور بمسح رقمه من هاتفي الجوال. دون تردد، سارعت إلى فعل ذلك قبل أن أغير رأيي وأقرر التراجع عن الفكرة. لا أريد وجودك في عالمي يا فارس ولا حتى في هاتفي، لا أريد سماع صوتك لا أثناء الدوام ولا بعد الدوام.. يكفي، يكفيني ما سمعت، لا أريد التمسك برجل لا يتمسك بي.. لم أفعلها من قبل ولن أفعلها الآن. وتمنيت لو استطعت الصراخ في وجهك: كفى.. بربك، كفى فلقد تعبت من كل هذا.. تعبت...

وهل تعرف؟...:

هل تعرف ما هي خطيئتي الكبرى؟
أنك كنت عشقي الأول...
هل تعرف ما قمة غبائي؟
أنني صدقتك...
هل تعرف ما منتهى سذاجتي؟
أنك تمكنت من تخدير عقلي دون أن أنتبه
هل تعرف ما هي غلطتي التي لا تغتفر؟
أني غفلت فنومت قلبي مغناطيسيا،
ليلازمك كعباد شمس... ،
فلم يعد يرى غيرك.

لكن هل كنت أملك القدرة على الصراخ أصلاً؟.. لم تعد لي أي طاقة على احتمال غبائي، ولا سذاجتي، ولا حتى تلفيق المبررات السخيفة لأستمر في ارتكاب الخطايا.. تعبت.. تعبت من التزلف لقديس لم يمنح قلبي إلا صك العذابات والأحزان.. تعبت منك، تعبت... عندها فقط، حينها فقط تأكدت أن الحكاية على وشك إسدال ستارة النهاية، بل ربما هي انتهت فعلاً.. وأحسست بإرهاق مميت يتغلغل داخل شراييني. دمار شامل... دمار.. إذن ما تقوله "كاترين هاثواي" صحيح: "إنك لا تعي حقاً معنى الموت إلا حينما تعرف الحب".. ولكن رغم كل شيء حاولي التماسك يا آلاء، حاولي.. تماسكي يا آلاء.. تماسكي.. ولا أدري لم تذكرت أيضاً في تلك اللحظة قصيدة "لقاء الوداع" لغادة السمَّان التي تقول فيها:

"تماسكي...
وأنصتي جيداً...
إنها كلمات الوداع
التي تقال دون أن تقال

***

تماسكي
والتقطي كهارب الوداع
ولا تطلقي نداء استغاثة
فقد أصيب الحب بالصمم!..."

آه..، آلاء، آآآآآآه... ها أنا أحاول. في الحقيقة، لم يشف غليل قلبي في تلك اللحظة سوى مسح رقمه من هاتفي الجوال.

***

وقررت السفر.. نعم السفر، هذا هو الأمر الوحيد الذي يمكنه أن يعالج قلبي ويعدِّل مزاجي.. سأبتعد عن الأماكن التي توجد فيها يا فارس، ولو إلى حين..، ولو إلى حين. واتخذت قراري لمعاودة التماسك من جديد. سأذهب إلى تركيا. سأبتعد لفترة عن مكان العمل لعلي أستجمع قواي. في الغد، أرسلت شهادة طبية كبيان على مدة الإجازة المرضية. قطعت تذكرة سفر نحو إسطنبول وكلمت "ياسين" الشاب التركي الذي يعمل بالاستقبال ليحجز لي غرفة في فندقي الذي اعتدت المكوث فيه أثناء إقامتي بإسطنبول. بعد أسبوع، غادرت مدينتي مع صديقتي دعاء واتجهنا نحو المطار لتبدأ رحلة العلاج لنفسي المنهارة، لتبدأ رحلة النسيان فمدينة إسطنبول وحدها

القادرة على منحي الراحة التي أنشدها. وحدها إسطنبول قادرة على منحك كل ما تريد. إنها كالحاوي بإمكانها أن تخرج لك كل ما تريده من قبعتها السحرية لتبهرك وتجعلك تستمتع باللحظة، ولا تمل. إنها دوماً ستقول لك:

– شبيك، لبيك، إسطنبول بين إيديك، اطلب واتمنَّ وعلى إسطنبول تحقيق كل رغباتك.

إنها إسطنبول. وهكذا رحلت نحو مدينة الأحلام لعلي ألفظ كوابيسي في البوسفور وأعود نقية من جديد. لعلي أرجع آلاء أخرى مختلفة عن التي غادرت مدينتها هرباً من فشل ذريع غير متوقع لحكاية غير متوقعة بطلها فارس غير متوقع، قد كان دوماً أمامها ولم تفكر طيلة خمس عشرة سنة من الاقتراب منه أو إزعاجه لأي سبب غير مشاكل العمل.

جسدي منهك. عقلي منهك. قلبي منهك. كلي منهك وكم أحتاج إلى دعمك وحضنك يا إسطنبول.. كم أرغب في خوض تجربة السفر هذه لأعيد توازني الداخلي الذي اختل بسببك فارس.. كم أنا بحاجة إليك يا إسطنبول.. يا أيتها الرائعة، العتيقة، الشامخة كعنقاء أسطورية. ولأن المدن تسكننا دون أن نشعر، لن أكذب إن قلت إن إسطنبول تقبلني عندما أنزل في مطار اتاتورك الدولي، وبعدها ترمي بي في أول سيارة أجرة تغادره ليأخذني السائق التركي إلى ساحة السلطان أحمد. وها أنا أقف أمام باب الفندق الذي حجزت غرفة فيه، اسمه: "ستار هوليداي"، وهو ليس بالفندق الفخم لكنه مريح وأكثر ما قد يعجبك فيه إطلالة اللوبي الرائعة على

جامع السلطان أحمد وآية صوفيا والحركة النشطة لقطارات الترام ورؤية هؤلاء الأتراك الوسيمين الذين يلفظهم كل ثانية قطار بعد قطار دون أن ننسى طيور النورس التي لا تغادر نافذتك المفتوحة خاصة إذا وضعت لهم فتات خبز أو قطع جبن. الجمال في كل مكان وفي كل وجه. الجمال حتى في هذا اللون الرمادي الذي يلف سماء إسطنبول ومآذنها ومساجدها، رماد مختلط بخضرة الأشجار النضرة، الذي لا نظير له، ولا حتى في الأحلام مع ألوان قوس قزح التي تنبعث من الأشكال المتناثرة على طرفي الشوارع، والمصنوعة من باقات أزهار اللوتس، رمز إسطنبول الخالدة منذ آلاف السنين.. أقف فوق الرصيف الرمادي وأنتظر المزيد من الصفاء الروحي الذي قد تمنحه لي إسطنبول وهو ما يجعلنا نسرع إلى رمي الحقائب والركض نحو الجامع الأزرق للحاق بصلاة الظهر مع الإمام. بعدها سأركض كالطفلة في شوارعك يا إسطنبول.. ينظر إلي ياسين مبتسماً ثم يقول:

– مرحبا آلاء..، هل أعجبتك الغرفة؟

– Harika kardeşim (عبارة تركية تعني: رائعة أخي).

– إقامة سعيدة إذن، ودعينا نراك في المساء لنضيفك فنجان قهوة تركية أصيلة مليئة بالرغوة البيضاء الجميلة وسادة كما تحبينها.

– لا بأس ياسين، görüşürüz.

أركض نحو الساحة الخضراء. أستلقي فوق الكرسي الخشبي قبال المسلة الفرعونية وأترك نفسي تأخذ راحتها في طريقة الجلوس دون أن أعترض (يكفي هذه النفس ما عانت) بينما آكل حبات

الكستناء المشوية اللذيذة. في كل مرة أحضر إلى إسطنبول، لا تمل عيناي من رماد طرقها الإسمنتية ولا من رماد سحبها ولا من رماد بوسفورها ولا من رماد مساجدها، لا أمل. إنها تسحرك في جميع حالاتها. وتنبعث من الكشك موسيقا تركية تحسها عربية أكثر منها غربية.. كم أحب التقاط تلك التفاصيل الصغيرة المميزة لمدينة إسطنبول. كل عشية حين لا يكون برنامج التعرف على المعالم السياحية والاستمتاع بها مكتظاً نخرج من الفندق لنرمي بأنفسنا عند أول مقعد خشبي بساحة السلطان أحمد، ثم نجلس أنا ودعاء. أنا آكل حلوى عاشوراء التي أعشقها ولا أفوت أي فرصة لإمكانية الاستمتاع بها مع كوب شاي أشتريه من أحد الباعة الجوالة الحامل للإبريق العثماني الكبير، المليء بالشاي الأحمر المخمر أما دعاء فتستمتع بقطعة الحلوى التي اشتريناها مع عاشوراء من محل الحلويات الشهير بإسطنبول "حافظ مصطفى" والذي يرجع تاريخ افتتاحه من طرف صاحبه إلى سنة 1864م حيث فروعه تتناثر في كل إسطنبول وأحدهم بجانب فندقنا "ستار هوليداي". بينما أنا آكل حلواي اللذيذة تشرب دعاء قهوتها النايلية التي تحضرها في الغرفة ولا تمل من شربها في أي مكان تريده – حتى إنها قد شربتها أمام إحدى شرفات قصر التوب كابي وهي تستمتع بالنظر لزرقة مياه البوسفور –.. المزيج قد يبدو غريباً لكن ذلك ما حدث فعلاً حتى أنها شربتها في الباخرة التي أقلتنا إلى جزيرة الأميرات. استمتعت بشربها وهي تنظر إلى طيور النورس التي تحوم حول الباخرة بينما نحن نرمي لها فتات الخبز الذي تحبه. لقد استمتعت بقهوتها النايلية

في أماكن ومعالم أخرى كثيرة. قهوتها النايلية التي إذا بدأت بالتحدث عنها وعن إصرارها بأن تجلب لها من مدينة الجلفة خصيصا لن تتوانى في تأكيد أن هذه المرأة لديها حالة إدمان للقهوة النايلية بلا شك أما استغرابك الحقيقي فسيكون من حديثها عن طريقة تحميصها التقليدية ثم رحيها بآلة الرحى العتيقة ومن ثمة تخزينها في علب خاصة حتى لا تفقد نكتها الأصلية ورائحتها القوية.

إذا تأخرنا في رحلة تجولنا بالمدينة فإننا نحرص ليلاً أن نؤدي صلاة العشاء بالجامع الأزرق. بعدها نركض أنا ودعاء إلى أي مطعم تركي تفوح منه رائحة شوربة العدس المحببة لدينا أو منظر اللبن الشديد البياض ذي الرغوة المتصاعدة دون خجل. أؤكد لك أنك ستعشق أكلات المطبخ التركي ومشروباته المتميزة وحلوياته التي لا يعلى عليها ولم أذق ألذ منها إلا في مدينة دمشق الفيحاء العزيزة. عشقك قد ينسحب حتى إلى قطع المحار المطبوخة مع الأرز اللذيذ والمطعمة بقطرات من عصير الليمون الحامض أو إلى طبق باليلا مع قطعة دجاج لذيذة، هذه الأكلات التي قد تتناولها حتى واقفاً حين يقدمها لك الباعة الجوالة بعرباتهم المتحركة المدهونة باللونين الأحمر والأصفر والمزخرفة بالزينة التركية الجميلة. بعدها نرجع إلى الفندق ونرمي بأجسادنا المتعبة فوق الفراش ثم نشغل النت للتحدث مع العائلة. قبل النوم يمكن أن نقرر ما قد نفعل غداً. هل نذهب acaba (مفردة تركية تعني: يا ترى) إلى برج غلاتا أو إلى قصر السلاطين العثمانيين التوب كابي أو قصرهم الجديد الدولما بهجة ذي الطابع الأوروبي أو إلى

جزيرة الأميرات أم نستقل الباص السياحي ليعرفنا على الشقين الأوروبي والآسيوي لمدينة إسطنبول أم إننا سنمتع أنفسنا بالجلوس على أرائك المقاهي المفتوحة المقابلة لكيز كولاسي (برج البنت) أم نقوم برحلة بحرية في البوسفور أو نذهب للتسوق في البزار الكبير أو السوق المصري أو شارع التقسيم أو بزارات منطقة مارتر أو عثمان باشا أو مول جواهر أو مول البندقية أو، أو، أو.. هل يمكن أن تقرر بسهولة؟ الأماكن كثيرة والخيارات متعددة، لذا سندع إسطنبول تسلمنا إلى أي متعة تريد...

تمر الأيام في مدينة إسطنبول كالحلم ولا تستفيق من منامك إلا عندما تلقي بظهرك على كرسيك بالطائرة. حينها فقط تتأكد بأنك غادرت أرض الأحلام، وها أنت تعيش من جديد في عالم الواقع، واقعك وفجأة تتذكر واقعك الذي نسيت الكثير من تفاصيله أثناء وجودك بإسطنبول. تلك هي إسطنبول وذلك هو الحلم الذي لا تحب أن تستفيق منه.. كم أنت محظوظة يا إسطنبول على مر الأزمنة والعصور. إمبراطورية في كل تفاصيلك، في كل ملامحك، أعشقك فاستقبليني دوماً مبتسمة...

***

الساعة تشير إلى التاسعة والنصف صباحاً.. اليوم هو أول يوم لي في العمل بعد عودتي من رحلة تركيا وانتهاء الإجازة المرضية. وبينما كنت جالسة في المكتب أتحدث مع صديقتي دنيا، فتح الباب ودخل فارس دون أن نحس به أو بضجيجه قبل قدومه – كما جرت العادة دوماً –. استدرنا نحو الباب. رفعت

رأسي فوجدته ينظر إلي.. نظرت إليه. وكم فرحت أني لم أبك أو أضحك..، بل لم أتكلم أو حتى أبتسم، فقط نظرت إليه ببرود غريب. أسعدني رد فعلي فذاك جعلني أشعر بأني دخلت مرحلة الشفاء منه. ها قد أصبحت أحاسيسي تجاهه بليدة. ها قد أصبحت أستطيع النظر إليه بكل تعقل – عكس ما كان يحدث لي سابقا حيث يصيبني وجوده بالتشتت –.. وصرخت تلك الغجرية بداخلي:

– Yes.. (هذا ما أريده بالضبط. يبدو أن رحلة تركيا قد أفادتنا وبدأنا نجني ثمارها النفسية، برود عاطفي لبدء رحلة العلاج من حبك يا فارس).

أما هو فحين نظر إلي قال بسرعة استغربتها:

– عودة قوية.

لم أعقب بل لم أنطق بحرف. فقط استمررت في النظر إليه ببلادة.. بعدها تساءلت: لم يريد أن تكون عودتي قوية، كم هو غريب!!!؟؟؟..، ولم قوية؟؟؟.. لم أفكر طويلاً في الموضوع فقد قررت عدم التعليق على الجملة، وسأستمر في النظر ببلاهة...

***

في الحقيقة، وبعد قراري بالتراجع خطوات إلى الخلف لتفادي خسائر نفسية أكثر، بدأت حكاية أخرى...

فبعد النهاية، بدأت حكاية أخرى أبطالها الحنين، الهذيان، الأشواق، والأحزان.

بعد النهاية، بدأت حكاية أخرى بطلتها الدموع الحارة الحزينة، دموع تسأل عنه، دموع تنساب كالسيل مع الآهات...

بعد النهاية، بدأت رحلة البحث عن الذات لكن هيهات أن تجدها...، هيهات

بعد النهاية، بدأت رحلة المعاناة مع الذكريات...

بعد النهاية، بدأت العذابات تلو العذابات...

بعد النهاية، أقف وحيدة أحتسي كأس الفراق المرير ممتزجاً بالقهوة التركية الأصيلة...

بعد النهاية، أقف وحيدة أصارع أمواج الشوق إليه، الهادرة دون هوادة...

بعد النهاية، بدأت أنزوي هناك وحدي مع نفسي تعاتبني، وتشتكيني للقلب العاشق...

بعد النهاية، بدأت أهرب من كل الناس، من ذاتي، من هذا العالم فأجدني ألجأ دون أن أنتبه إلى جزيرتنا السرية...

بعد النهاية، بدأت أنهار، أنهار، أنهار....

بعد النهاية، تنتهي حكاية وتبدأ حكاية ثم تنتهي حكاية وتبدأ حكاية...

بعد النهاية، انقسم قلبي شطرين: شطر معه، وشطر ضده...

بعد النهاية، تحولت الأعماق إلى ساحة معركة كبرى بين موالٍ ومعارض...

بعد النهاية، أدركت – متأخرة، بعد أن فات الأوان– أن حبك أدخلني دائرة الإدمان...

بعد النهاية، كم فكرت في قتلك – افتراضياً – لأرتاح فإذا بالجسد والروح يثوران لأجلك.

بعد النهاية، لم يعد لي أي ملجأ منك إلا الصمت..، ثم الصمت..، ثم الصمت، فالصراخ لن يجدي. لو كان يجدي لصرخت في وجهك: لم فعلت ذلك بي، لم؟؟...

وأمسك برأسي قبل أن ينفجر لأنه أكثر جزء في جسدي وعى معنى النهاية...

***

بعد نهاية الحكاية، اكتشفت أمراً غريباً لم أكن أعرفه من قبل: اكتشفت أن الرجال تختلف طباعهم كما أسماؤهم. اكتشفت أنه يمكن أن تتعرفي إلى ذاك الرجل الذي قد يغريك..، وقد تتعرفي إلى ذاك الرجل الذي قد يربكك..، وقد تتعرفي إلى ذاك الرجل الذي قد يجردك من ذاكرتك لأنه سيصبح هو مالك الذاكرة وملكها.. لكن في حكايتي، اكتشفت أنني تعرفت إلى نوع جديد علي من الرجال. اكتشفت أني عشقت رجلا ينحني للريح قبل أن تهب خوفاً من أن تكسره – مع أنها قد لا تهب أصلاً –.. اكتشفت أن هناك رجالاً قد يهزمونك كفرسان، ورجالاً تهزمينهم كملكة...

بعد نهاية الحكاية، لا أدري هل سأستطيع نسيانك أم سأستمر في تتبع صوتك وعطرك كعباد شمس...

بعد نهاية الحكاية، اكتشفت أيضاً أن هناك رجالاً منهم من يمنح عطر حبه دمعة، وآخر فرحة، وآخر وجعاً، وآخر ذكرى، وآخر حزناً وغماً، وآخر قهراً، وآخر حسرة ورجلاً حبه قد يدوم دهراً، ورجلاً حبه لا يطول أكثر من لحظة، وآخر عطر حبه ورد وياسمين، وآخر عطر حبه بلا رائحة...

بعد نهاية الحكاية، اكتشفت أن حبك كان ثقيلاً كوجع...، عميقاً كآهة..، أنك كنت ولم تكن.. أنك حقيقة ووهم.. أنك عاشق وغير مهتم.. أنك تريد ولا تستطيع.. أنك بجانبي ولست معي.. أنك صوت يقهقه عند حدود الابتسامة.. أنك بحر هادر يخاف زوابعه الصغيرة.. أنك تشتهي بقوة لتكسر رغبتك الجامحة.. أنك تسارع إلي لتهرب مني.. أنك وأنك وأنك.. يا لغرابة هذا الرجل الذي عشقت.. يا ليتني لم أحبه ذاك الصباح الشتوي، يا ليت.. يا ليتني لم أمش في دربه الغامض هذا، يا ليت.. يا ليت...

***

وبعد أن انتهت الحكاية، بدأت أحزاني التي سكنتني طيلة موسم الشتاء بالتراجع شيئا فشيئا نحو عالم الذكريات. وسلمى تقول: "صديقي الذي علمني المرارة أكثر من الحب، شكراً لهذه الأحزان الطيعة، للاحتضار السماوي، الذي اجتاحني من حيث أعلم وتعلم. أقف مرة أخرى في الأمام، أجابه الوحشة وو...".

سلمى، لن أشكره. سأواصل صمتي بكل صبر. سأواصل قتله بصمتي المستمر. سأراقب موته النفسي يوماً بعد آخر. سأنتظر أن تخبرني صديقتي دنيا أن ضغطه ارتفع. أن سكره انخفض. سأنتظر.. سأبارك صمتي الرهيب بكل هدوء الموتى، فأنا قد مت عشقاً وليذق هو بعضاً من هذا الكل.. سأطلب من السماء أن تنزل بركاتها العلوية على حطام هذا الحب الذي كسرني.. سأطلب من السماء أن تجفف جداول الأحزان التي جرفت الأعماق.. لن أطلب من الرب شيئاً.. أعلم أني كما قد أحب، قد أكره.. أنني

كما أَترك، قد أُترك لكن ما قض مضجعي أن عاشقي رجل لا يستطيع المواجهة، ولا حتى مواجهتي رغم أننا نعيش في عصر السرعة والنت، العالم الافتراضي. في اعتقادي، النظرات لم تعد كافية ليعيش هذا العشق.. ماذا عساي أقول؟.. شكراً سلمى لكن لن أشكره، لن أشكره بل سأتركه يتعذب قليلاً وربما كثيراً، لا أدري.. بعد النهاية لتكن البداية في أعماقه بدل أعماقي التي احترقت بنار حبه المستحيل. لن أهدأ حتى أرى صمتي المميت يميته.. ربما بعدها سأسامحه ثم أرحل.. أرحل بعيداً عن عالمه وعن ذكريات حكايته معي التي أصبحت مريرة، جد مريرة...

***

ولن أنكر....

بعد النهاية، كم ذرفت دموعاً. أصبحت أذرف دموعاً لها عنوان، دموعي تتكلم...

بعد النهاية، أصبح لدموعي أسئلة كثيرة تريدني أن أجيب عليها. دموعي تتكلم بصمت. تسألني عنه، عن سبب الفراق، عن سبب انتهاء الحكاية...

بعد النهاية، ها أنا أتهالك فوق الأريكة بكل هدوء الموتى.. ها أنا وحيدة، وغير وحيدة، أجتر ذكرياته القريبة.. أتذكره حين أرغب في نسيانه.. ها أنا لم أعد أنا...

بعد النهاية، أقسمت أن أراه يحترق بصمتي.. وما زلت أفعل، وسأستمر.. وها أنا أراقب حركاته وأحس بأنه يبحث عن الحجج ليقف بجانبي ولو للحظات.. أن يمتع عينيه بحضوري

لكني لن أغفر.. لن أغفر ولن أمنح إلا الغياب..، ثم الغياب..، ثم الغياب.

بعد النهاية، ها هو يحاول أن نبقى قريبين ولو كأصدقاء، ألّا أتبخر كالسراب.. فارس لا يمكن أن نبدأ من جديد مع الحبيب، لا يمكن فالوضع قبل العشق يختلف عن الوضع بعد العشق. لا شيء يصبح كما كان في السابق، لا شيء، وأنت تريد أن أوجد في عالمك ولو كشبح.. لا يمكن، لا يمكن.. yane olmaz (عبارة تركية معناها: يعني، لا يمكن)...

ها هو يحاول أن يستفزني للنطق بأي كلام مقابل أحاديثه التي يثرثر بها مع صديقتي دنيا لكن لن أمنحه إلا الصمت والنظرات العاتبة.. لن أمنح إلا خنجر العتاب ليدمي قلبه كم حطَّم قلبي الصغير الذي لم يستطع التحمل.. هذا القلب الذي أحسه كسر كمزهرية صينية جميلة تناثرت أجزاؤها المتناهية الصغر في كل الأرجاء.. لن أغفر له ما دمت لم أفهم لم جر هذا القلب الذي كان مستسلماً للوحدة ويستأنس بأي هدية أقدمها له كتعويض عن الحب – بالنهاية، الهدية تجلب السعادة بغض النظر عمن يمنحها – فيحبها ويتلهى بها وعندما يملها أعاود الكرة بأن أهديه شيئاً مختلفاً وهكذا.. وهكذا نحن في حالة عتاب وجبر خاطر.. تارة قد أهاديه سفرية إلى تركيا وآخذه إلى جزيرة الحب والعشق أو نذهب إلى جزيرة الأميرات أو أشتري له كتاباً رائعاً أو خاتماً جميلاً أو إسورة ذهب.. وحسب مقدار العتب يكون جبر الخاطر وتستمر الحياة داخل الأعماق وديعة، مياهها راكدة، هادئة هدوءها الغريب.

بعد كل هذا الجهد المضني في إرضاء القلب، هذا الجهد الذي أخذ الكثير من الوقت والتعب والمال، جئت أنت.. جئت لتحدث الزلزال.. جئت لتنشر الحيرة في أرجائه.. جئت لتهمس له قائلاً: إنك مسكين يا قلب، آلاء تخدعك. أنت تحتاج إلى أشياء أخرى غير التي تمنحها لك.. أنت في الحقيقة تحتاجني أنا وفقط.. ويثور القلب.. يثور ولا أقوى على كبح غضبه مني.. يثور ولا أستطيع إيقاف إعصاره المدمر.. البحر الهادئ هاجت أمواجه إذن وأصبحت تسونامي.. وأخذته إلى عوالم عجيبة، لم يرها من قبل.. تجولت معه في مروج لا يعرفها.. أسمعته كلاماً نسي معانيه.. وبعد أسابيع من الهذيان والجنون، نظرت إليه بغرابة ثم رحلت.. رحلت تاركاً وراءك قلباً متمرداً..، قلباً محطماً لا يكف عن السؤال عنك...

رحلت لتتركني مع ذاكرة ترفض أن تصبح مخزناً للنسيان.. رحلت لتتركني مع فنجان القهوة المرة الساخنة، وقلب غاضب، وعين تدمع، وذاكرة ثائرة...

بعد النهاية، هذا ما حدث، لذا لن أغفر له، وسأستمر في صمتي لأقتله كما قتلني..، لعلي بعدها أسامحه وأرحل...

***

بعد النهاية، أصبح كل لون بني يدل على القهوة المرة ومن قبل كان يدل على الشكولاته الحلوة التي أعشقها فأصبحت لا أطيق النظر إليها، وأهرب منها لفنجان القهوة المرة...

بعد النهاية، أصبح الإحساس بالأشياء منعدماً.. رد الفعل سالباً.

بعد النهاية، أصبحت أعشق الانزواء في الركن، وأتكور كقنفذ خائف لأنه يحس بأن العاصفة ستدمر كل شيء أحبه في الطبيعة...

بعد النهاية، أصبح الغياب أحلى من الحضور...

بعد النهاية، أصبح الصمت أحلى من الكلام...

بعد النهاية، أصبح قتل العاشق أحلى من الحياة بجانبه...

بعد النهاية، أصبحت أفكر بالانتقام لأجل إرضاء قلب محطم..، لأجل امرأة جُرت نحو قلعة العشق دون أن تطلب ذلك من الحياة ليتركها الفارس هناك ويرحل...

بعد النهاية، هذا ما حدث قبل النهاية...

بعد النهاية، أصبحت أفهم معنى أن تقول للعاشق: أنت مثل أخي، فهل سيفهم؟؟.. الآن، عرفت ما كنت أفعل بكم، آسفة...

بعد النهاية، لم أعد أفهم من القاتل ومن القتيل، ولم القتل يصبح له معنى آخر في الحب وقصص العشق؟...

بعد النهاية، كل خلايا دماغك قد تذوب مثلي وتتلاشى، فكل الرصاصات تتوجه نحو إحساسك لتقتله..، والمشكلة أن الحبيب يصبح حبيباً أكثر مما كان من قبل حين يتمازج الغياب مع الحضور، الذاكرة والنسيان...

بعد النهاية، تتأجج المشاعر وينتابك هدوء غريب يشبه هدوء الموتى..، وهو هدوء قاتل ومميت.. لا تعتقد العكس إطلاقاً....

***

اليوم عرف – بسبب مسألة عالقة في العمل – أني محوت

رقمه من هاتفي الجوال فقد كلمني ولم أجب لأني لم أعرف الرقم كونه ظهر بدون اسم. غضب كثيراً وثار في وجه دنيا حين أخبرته بأني قد مسحت الرقم من الهاتف. ها أنا أراه يدخل المكتب بهدوء – عكس ما كان يفعل سابقاً – ليفاجئنا بحضوره وكأنه يبحث عن جواب سؤال يلح عليه، يبحث عن الجواب من خلال ردة فعلي. وها أنا أنظر إليه ببلادة غريبة، لا أفهم معناها. ها هو يحادثني بلطف وهدوء عن مشاكل العمل – رغم غضبه الشديد مني –.. أتراه يتكلم فعلاً عن العمل أم أنه يريد أن يجد سبباً وجيها ليتحدث معي. وأنا كم أريد أن أصرخ في وجهه وبأعلى صوتي: دعني أكمل حياتي بسلام.. بحق السماء، إنني أريد ولا أستطيع فغادر أعماقي، أرجوك.. أقسم بأغلظ الأيمان وأقرر ثم أجدني سريعاً أمزق أوراق الأحكام الصادرة ضده لأرميها للرياح لحظة اللقاء..، بحق السماء، ماذا يحدث لي؟.. هل أنا على أعتاب مرحلة جنون العشق أم ماذا؟؟؟...

***

يا أيها العاشق الذي لم يستطع تحدي واقعه لأجلي أو لأجل حبنا أو حتى لأجل نفسه. إنك حين ابتسمت لي ذاك الصباح الشتوي قالت عيناك الكثير.. نظراتك الضائعة التي تاهت في صحراء عيني بحثا عن مرفأ ترسو فيه قالت: أنا عاشق.. وأنا – المتعطشة للتحليق عالياً في سماء الحب – قبلت المغامرة.. حبك يا فارس إثم جميل أقترفه ولا أخجل منه كما لا أستطيع أن أبوح به.. حبك يا فارس هربٌ من الرتابة.. حبك فارس عزف جميل على الربابة.

يا أيها العاشق، هل تدري أني لا أدري لم أسرعت إلى فتح أبواب مدن الجليد.. أني سارعت إلى فتح قلعة القلب.. أني سارعت إلى حمل دفاتري وأقلامي لأكتب عنك، لأخط خواطري وأنظم أشعاري.. هل تعلم أن حبك أعادني إلى عالم الكتابة بعد أعوام من الصيام الإبداعي؟...

وأعترف.. أعترف أني عشت أياماً حلوة مع حبك.. أعترف: أنا امرأة سئمت الوحدة وتعبت من برودة أمسيات الشتاء القارسة.. أعترف: سئمت تعقلي واشتقت لجنوني.. أعترف: أشتاق للقلم وللكتابة لحظة عشق.. أعترف: اشتقت للاشتياق، للشوق، للعشق، للتسكع ليلاً داخل دهاليزي السرية.. أعترف: أحببت حبك لي وأحببت حضورك الاستثنائي الذي يجعل قلبي الصغير يرقص فرحاً وسعادة.. وأعترف، ما زلت أعترف أن حبك إثم جميل أقترفه ولا أبالي...

وأعترف:

بعد النهاية، ها أنا من جديد امرأة وحيدة لكن سعيدة..، سعيدة بذاك الحب الذي طَّل رغم أنه وَّلى، ضيف خفيف الظل – مثلك يا فارس، نسيت أن أسألك: لِم حبك يشبهك إلى ذلك الحد؟؟؟..، إنني سعيدة بالحب الذي كان فهو يؤنس وحدتي الآن..، بعد رحيلك. أليس الأمر مضحكاً قليلاً، فالذي يبدو أني وقعت غراماً في الحب لا في الحبيب!!!.. يبدو أني أحببت الحب لا الحبيب، أمر غريب!!!..

وأعترف لغادة السمَّان التي تقول في كتابها "حب": "أليس الحب

جميلاً بما فيه من تجاهل وأوهام؟".. في الحقيقة سيدتي الجميلة: الحب أجمل من كل هذا.. الحب أجمل من أي شيء موجود.. الحب يمنحك حق الطيران دون أجنحة، حق الإبحار في المحيطات دون أشرعة.. إننا حين نحب لا نحب الحبيب فقط، بل نحب الحب أيضاً، وربما لذلك حين يرحل العاشق نبقى لأسباب واضحة مشدودين لقصتنا معه، لحكاية حبنا.. ربما لهذا السبب نستمر في الاشتياق رغم تجاهل الحبيب.. ربما لهذا السبب يلفنا شوق جارف لا نستطيع فعل شيء حياله.. ربما لهذا السبب نبقى في حالة انجذاب عاطفي انتحاري نحو الحبيب رغم الهجر.. ربما، ربما...

***

مر شهران على نهاية الحكاية. أجلس فوق الأريكة بغرفتي. لا يفارقني فنجان القهوة المرة. أجلس داخل بطانيتي أتأمل حوار القلب مع العقل، وهو حوار يحدث كثيراً وأجده مفيداً للصحة النفسية لذا لا أعارضه. ها قد طوينا صفحات الحكاية ودفناها داخل دفتر الأيام. وبعد أن تجاوزنا كل تبعات القصة. وبعد أن خبا أنين القلب، ها هو العقل يحادثه ويقول له:

هل استمتعت؟

...

لم تعذبت؟

...

هل سهرت الليالي تبكي وحيداً؟

...

سأخبرك أمراً مهماً بالنسبة إلي لو كان فيه خير لتيسر... لو كان في هذا الحب خير لتيسر... فهنيئاً للأدب كما تقول أحلام مستغانمي بفجيعتنا، هنيئاً للأدب بمكاسب وخسائر حكاية أخرى .

***

و...،

ماذا بعد البعد؟

ففي الحقيقة، بعد البعد، أصبحت صديقة حميمة للقهوة المرة...

بعد البعد، ها أنا ممتنة لفارس كونه كعاشق منح الحياة لقلبي ولو لأسابيع.

بعد البعد، أعتقد أن الأمر لم يكن سيئاً إلى تلك الدرجة فلقد منحتني يا فارس مشاعر جميلة.. لقد منحتني حالة عشق خاصة، وهو إحساس جميل وذلك يكفيه لنغفر له سيئاته التي ارتكبها بحقنا.

بعد البعد، ما كنت لأندم على هذا القرار اللاإرادي الذي اتخذته.. لست بآسفة على شيء...

بعد البعد، ها أنا أجلس وحيدة لكن سعيدة بأوراقي، بأشعاري، بخواطري، وبهذا الإحساس الجميل الذي عشته بصدق رغم المعاناة...

بعد البعد، لا أشك ولو للحظة أن القلب قد منح كل شيء...

بعد البعد، لا أشك ولا للحظة أن الغد لن يكون أفضل..، وأن الحياة ستمنحني تجارب حياتية أخرى لأستمتع بلحظاتها وقد

أعاني، لا أدري، ولا يهم...

بعد البعد، أجدك قد رحلت عن القلب لتسكن الذاكرة التي لا شك هي سعيدة الآن لقدوم عاشق جديد لمضاربها...

بعد البعد، ها أنا كما أنا لم أخسر نفسي ولم أفعل شيئاً أخجل منه...

بعد البعد، ها أنا متفائلة لأني ما زلت قوية لم أكسر. ما زلت أحاول منح السعادة لقلبي الصغير. ما زلت قادرة على العطاء ولم أنقم على الحياة...

بعد البعد، ها أنا ماضية قدماً نحو الأمام أحاول أن أحقق مشاريعي الصغيرة وطموحاتي البسيطة...

بعد البعد، ها أنا صامدة، صامتة، أتحدى نفسي بالكتابة فشكرا لك يا أيها القلم، شكرا للوحي، لذاك الإحساس العذري الطاهر...

بعد البعد، شكراً لك يا أيتها الحياة على كل شيء رغم كل شيء...

***

وأنت، حتى بعد انتهاء الحكاية، ما زلت تبعث لي بإشارات تدل على حبك. وبرأيك: هل هذه المشاعر ستفرحني أم تحزنني؟.. لم تبتعد وتقول في صمت: أحبك.. لم تخاف فكرة الارتباط بي لأنك متزوج وتؤكد لي رغم ذلك أنك تعشقني ولا تستطيع نسياني. أنك طيلة خمس عشرة سنة، لا تكف عن التفكير بي.. وتأتي إلى المكتب وأتحدث معك عن العمل بكل جدية وحزم محاولة تجاوز

الأمر والتصرف بشكل طبيعي (كم الأمر سخيف حقاً، بشكل طبيعي!!!...). تقول:

– لماذا لم تكملي كل التفاصيل عن ملف الشركة؟

– خفت أن يوظف المسير المعلومات في أمور غير قانونية ويستغل المراسلة كمستند. لذا آثرت أن أبقى الحديث ضبابياً لتجنب أي استخدام غير متوقع.

– ضبابي، طبعاً أبقي الحديث ضبابياً كطقس إسطنبول، تقول دنيا.

استدرت نحوها. نظرت إليها مستغربة كلامها وانفجرت ضحكا لتعقيبها الذي ليس في محله أبداً (خارج عن المناقشة التي تدور حول محتوى المراسلة الإدارية). وكم أسعدتك تلك اللحظة فقد ظهرت نواجذك رغم تبسمك بوقار. وأحس بأن استرسال دنيا في الحديث معنا دليل على وجود اتفاق مبطن مسبق بينكما – وكأنك اشتكيت لها جفائي أثناء الكلام معك –..

الآن، كم أرغب في أن أسألك: ماذا تريد مني بالضبط؟. ما معنى أن أتأكد بأنك لا تزال تحبني، ما معنى ذلك؟؟؟. وماذا بعد؟.. تعنيني حقاً البعد وأنت تريد القَبل، وأنا لا أريد. لن أرضي لآلاء بأن تستمر في قصة حب بلا أمل حتى وإن كانت قصة رائعة لم نعش مثل تفاصيلها من قبل. هل تعلم ما هي مشكلتك فارس؟.. أو لنقل مشكلتنا. مشكلتنا أنك تحبني بطريقتك، وأنا أريدك أن تحبني بطريقتي.. ما معنى أن تحبني وتحبني وتحبني..، وماذا بعد؟؟؟.. أعلم أنك تخاف الارتباط لكونك متزوج وأنا لا أرى

أي مانع من أن تتزوج ثانية.. باعتقادي: تلك المرأة لم تنسك آلاء، وذلك عذر يكفيني لأبدأ معك عيش الحياة التي تتمناها. سأخبرك أمراً قلته لصديقتي دنيا فاستنتجت منه أنك قبل خمس عشرة سنة رغبت في الزواج مني لكن خفت الارتباط بي لوجود ذاك الفارق الاجتماعي بيننا. لقد منحك القدر لغيري رغم تعلقك بي. كم كان هذا القدر قاسياً معي قبل خمس عشرة سنة. وكم هو قاس معي بعد خمس عشرة سنة. ما زال ذلك الخوف يخنقك. وأنت شاب خائف من عائلتي الثرية، وبعد خمس عشرة سنة، وأنت كهل خائف بسبب واجبك الأبوي تجاه أولادك، مسؤوليات تراها ثقيلة.. خائف، خائف، خائف.. وأين أنا وسط كل هذا، أين؟؟؟.. موجودة وغير موجودة.. حبيبة وبعيدة.. أين؟؟؟. دائماً كنت أرغب وبشدة في أن تجيبني على سؤال يلح: لِم أجدك تختلق الأعذار لتستمر في حبك لي وبعدك عني؟.. أشعر أحياناً كثيرة بأنك تريد خلق الأعذار لنفترق، أم إنك بريء من هذه التهمة والقدر هو الذي يمارس لعبته المفضلة مع العشاق، لعبته القديمة الجديدة – خلق الأعذار – والتي فرقتنا قبل خمسة عشر.. لا أدري لم أفكر بهذه الطريقة السخيفة، لا أدري؟؟؟؟.. رأسي بدأ يؤلمني.. آه منك، ومن هذا القدر المحتوم القاسي...

***

وأتذكر ذلك اليوم الماطر.. أتذكره جيداً. كانت أصوات المؤذنين تتعالى من المساجد المحيطة بمنزلنا تدعو الناس لصلاة المغرب. بعد الآذان دعوت ربي، وكنت غاضبة منك حينها.

غاضبة لكونك تجرأت بعد خمس عشرة سنة أن تخبرني بحبك. كنت تريدني أن أعرف ذلك. والآن، حين عرفت وأحببتك تركتني وحيدة أتساءل: لم وكيف؟. أتذكر أني دعوت الله قائلة: "يا ربي ابتله كما ابتليتني".. وقفت وسط الأمطار أبكي بحرقة، بحرقة شديدة. كان بحر أيامي هادئاً فأثرت أمواجه حتى تعالت كتسونامي تجرف كل شيء أمامها ولا تستكين مهما تغيرت المواسم.. في الغد، علمت من دنيا أنك مريض جداً وستغيب لأيام بسبب الحمى المرتفعة. لا تعلم كم حزنت. حزنت عليك، لم أنكر.. وكم وددت لو أستطيع أن أهتف لك لأقول لك: سامحني. أنا التي دعوت عليك.. وكم وددت أن أركض إليك لأجلس بقربك وأقبل يديك وأرجوك أن تسامحني. إنك مريض بسببي، ففي الأمس لم يكن بك شيء. وقتلني هذا الإحساس بالذنب.. قتلني، وشعرت فجأة أنني أنا المريضة.. مريضة بك.. مريضة بحبك، وبغبائي الذي جعلني أدعو عليك، وتفطر قلبي حسرة عليك.. تشتتت روحي وتناثرت في أرجاء الأعماق بعشوائية مؤلمة.. أنا السبب.. أنا السبب، وأتنهد بحرقة.. لم حينها نسيت كل ما فعلته بي؟. لم لم أتذكر حينها تجاهلك؟.. لم؟.. لم يحدث لي كل هذا، لم؟؟؟...

***

وانتظرت بفارغ الصبر أن ينتهي موسم الزلازل هذا فقد دمرت أجزاء كبيرة من الأعماق.. انتظرت بفارغ الصبر أن يمسك القدر بدفتر حبنا المثقل بالآلام ليضع نقطة النهاية ويغلقه... انتظرت.

لقد مضت أيامك ثقيلة، ثقيلة.. لم تمر مر السحاب الخفاف،

لا.. مرت مر السحاب الثقال..، وكم كانت أياماً قاسية، موجعة.. يوماً بعد يوم، كنت أذبل في حبك كزهرة نرجس منع عنها الماء والهواء...

وانتظرت بفارغ الصبر أن يكتب القدر كلمة النهاية، نهاية الأحاسيس، نهاية للاشتياق، نهاية لهذا الحنين، نهاية لحبل التعلق بك بأن يقطعه.. وأدرك، كم كنت غبية، كم كنت ساذجة حين ظننت أنك ستفعل المستحيل ليصبح حبنا ممكناً. أدركت مع الوقت أنني أحببت فارساً مغلوباً. أدركت متأخرة ذلك، أدركت ذلك حين قلت لي تلك العشية:

– تعلمين أنه لا يجب أن أتصل بك بعد الدوام.

طبعاً، طبعاً، لا تستطيع أتسخر مني، وهل أنا من يقال لها هذا الكلام، أنا؟.. أنا التي كنت قلقة عليك حين سمعت بأنك مريض. أنا التي أردت فقط أن أطمئن عليك، لا أكثر، لأني لست ممن يلحون للتحدث بالهاتف، فلم تقول لي هذا الكلام؟. وببساطة إذا كان هناك قرار جاد اتخذته قل لي، قل لي صراحة:

– لننه هذه الحكاية آلاء، لننهها.

لم كل هذا اللف والدوران؟.. لكن الخطأ ليس خطأك، بل خطئي. خطئي أني صدقت فارساً مغلوباً. وانطلقت صفارة الإنذار داخل رأسي.. تأكدت ساعتها أنك لن تستطيع تحمل تبعات حبنا فمحوت رقمك من هاتفي الجوال. لا أريد يا فارس رجلاً لا يعاملني كروحه حتى وإن كنت روحه.. لا أريد.. لا أريدك إذن.. كم كنت غبية.. ويوماً بعد يوم، لحظة بعد أخرى، أتأكد أني غبية.. غبية

لأني كنت دوماً أخلق لك الأعذار تلو الأعذار على تجاهلك لي.. غبية لأنه رغم نضجي ورجاحة عقلي تم الاستخفاف بي.. حمقاء وغبية.

***

هذا المساء، تملكني فجأة إحساس غريب. لقد تمنيت لو أني لم أقابلك في هذه الحياة. لو أنني لم أعشق رجلا متزوجا حتى وإن كان يريد الزواج مني قبل خمس عشرة سنة، ولم يملك الجرأة ليطلب ذلك صراحة.. وبرأيك: ما الذي تغير بعد خمس عشرة سنة حتى تقض مضجعي وتصر على أن أعرف حقيقة مشاعرك تجاهي؟.. ما الذي تغير غير أنك ازددت مسؤوليات وأصبحت عليك أعباء أخرى وضغوطات أكثر، ما الذي تغير؟...

***

كم وددت لو أنني أستطيع إرضاء تلك الغجرية لتعود حرة كما كانت؟.. كم وددت لو يرجع الزمن شهوراً ويمحو القدر من سجله حكايتنا وكل تفاصيلها.. وآه، كم غيابك يتعب.. يوماً بعد يوم، أتمنى أن تقطع إجازتك وتعود للعمل ثم أتمنى ألا تعود.. لا تعد فلقد بدأت أتعود على الغياب وأجده أكثر راحة للعقل.. ولأني أريدك وبقوة أن تبقى هنا حيث أقرب بقعة في القلب أزداد راحة عندما تكون غائباً لتقبع روحك حيث أبعد نقطة قد يصل إليها نظري. سأتعود.. سأتعود غيابك وأتعود تلك المرارة التي تسقيني إياها الأقدار.. سأتعود أموراً كثيرة على ما يبدو، سأتعود، فهل حقاً سأتعود؟؟؟...

آلاء..، كم أنت فاشلة في الكذب..، فاشلة، صدقيني...

يا أيتها الغجرية، لم تكابرين وتدعين أنك ستتعودين غيابه.. إذا كان ذلك صحيحاً فلم تحتفظين بمسودة آخر مراسلة إدارية خط فيها ملاحظاته لك..، بل لم تبقينها في درج المكتب ولم تمزقيها..، لم تريدين أن يقع بصرك على تدرجات خطه كلما تفتحين الدرج.. أتريدين ألّا يغيب عن نظرك وحتى لو كان حضوره من خلاله خطه فقط... كم تفكيرك متناقض وغريب؟.. ألا يؤلمك رأسك من فكرة رفض غيابه ورفض حضوره؟.. كم أمرك عجيب، لم تريدين الحضور والغياب؟.. هل ما تمارسينه على نفسك طريقة علاج جديدة للنسيان أم هو أسلوب مبتكر للانتحار العاطفي.. تريدين الصدق حقاً: لا معنى لكل هذا..، لا معنى لكل ما تفعلينه، بل لا فائدة ترجى منه.. عليك أن تقرري أحد الأمرين: إما الحضور وإما الغياب، وعلى أساس ذلك القرار تخطين مسار مشاعرك تجاه فارسك هذا..، لا توجد منطقة وسطى تتحمل حلاوة العشق ومرارة المستحيل.. حتى الخوارزمي لا يستطيع حل هذه المعادلة المركبة!!!.. حتى الخوارزمي لا يستطيع...

إلهي، لم حبنا حكاية حبكتها معقدة إلى هذا الحد؟؟؟.. ما يتعبني حقا هو أنني أرى حل المعادلة بسيطاً، وهو لا يجده أو ربما لا يريد أن يراه؟.. ما أشقاني بحبك فارس، ما أشقاني بهذا القدر...

***

دائماً كنت أتساءل: هل حضورك الذي يريح أم غيابك أريح؟.. ولا أجد جواباً شافياً.. لا أجد جواباً عن الحضور، ولا عن الغياب..

أتعلم فارس، حضورك يريح العين، يفرح القلب ولكن يتعب العقل. وغيابك يتعب العين، يحزن القلب ويريح العقل.. إن حضورك يجعل القلب سعيداً لكن العقل متعب من مد وجزر هذا العشق.. أما غيابك فيجعل القلب حزيناً لكن العقل مرتاح وشبه متأكد بأن قرار البعد الذي أتخذه هو القرار الأصوب وإن كان الأصعب.. أترى: ها أنت تثير أعصابي بحضورك وغيابك لكنك لا ترى.. وكيف ترى خفايا قلب سئم الحضور والغياب.. مشكلتي يا فارس كذلك أنني لا أستطيع تغيير مقر العمل ولو فعلت لارتحت.. فقد أستريح وتستريح.. صدقني لو أستطيع لفعلت دون تردد، دون تردد...

***

مرت سبعة أيام على غيابك... وكم أشتاق لك فهذا أمر لم أتعوده، فلقد كنت أنا من يمارس لعبة الغياب، لا أنت.. كم أشتاق.. أشتاق لحضورك، لضحكاتك، لكلامك – حتى وإن كان كلام في مسائل العمل –، لضجيجك الذي كان دائماً يدوي في الباحة.. لأول مرة أعي معنى كلامك الذي بحت به لصديقتي دنيا بالمكتب حين سألتها عني:

– أين آلاء؟

– إنها في عطلة مرضية.

– ...

قالت لي بأنك انصدمت من جوابها. ولا أدري لم أخذت كلامي قبلها على غير محمل الجد حين أخبرتك بأني سأغيب

لمدة أسبوعين. قالت لي أيضاً بأنك نظرت إليها بكل يأس، ثم قلت:

– حقاً؟؟...

– ...

– ولم لا تأخذ عطلة طويلة.. ترتاح من العمل ونحن نرتاح أيضاً.

تساءلت، بعد عودتي ومعرفتي بما دار بينكما من حديث: ما الراحة في نظرك يا فارس؟.. بحق السماء: هل هناك أي معنى للراحة إذا كانت الأرواح متعبة أينما كانت؟؟؟.. وأشفق عليك، لأول مرة أشفق على حالك لأعي معنى غيابي عنك.. فها أنا أجرب غيابك عني.. كم كنت قاسية. لم أكن أعرف ذلك.. في الحقيقة، كان غيابي دائماً بسبب غضبي منك.. كنت أمارس لعبة الغياب كعقوبة لخذلانك لي.. ويا فارس حين أردد: أشتاق لك ليس معناه أنني أستعطف عقلك أو قلبك.. ليس معناه أنني سأتخلى عن قرار البعد.. أنا فقط أبوح لنفسي بمكنونات نفسي...

ولم أنكر، أشتاق لك....

***

ها قد مرت عشرة أيام على غيابك.. وها أنا أتعود على الغياب يوماً بعد آخر.. وها هو شلال الجليد يبدأ بالتكتل من جديد حول قلبي.. ها هو يلفه.. ها هي الغجرية تبدأ باستعادة توازنها السابق.. وأحس بأني أتحول يوماً بعد آخر إلى دب قطبي، وهي إشارة قوية على عودة تلك الرتابة للروح.. يوماً بعد آخر، أحس

بأن القدر يقوم تدريجياً بغلق ملف حكاية حب لا أمل فيه أصلاً – في نظره على ما أعتقد –.. وكم تمنيت لو كانت الأقدار أكثر رأفة بهذا العشق.. إذن، مرحبا بالوحدة.. مرحباً بالحرية من جديد.. مرحباً بك آلاء في الغرينلاند.. مرحباً.. Hoşgeldin...

***

وحل فصل الصيف...

وبعد انتهاء الحكاية بكل صمت قاتل، بكل أناقة باريسية فائقة... وبعد أن توارى ذاك الحب خلف أسوار الماضي، سأخبرك فارس بسري الخفي... سأبوح لك بسري الصغير الذي لم أقله لأحد من قبل ولا حتى لنفسي رغم المرات الكثيرة التي تبادلنا فيها أحاديث خاصة في جلسات نسوية...

فارس...

لقد أحببتك قبل خمس عشرة سنة...

لقد أحببتك طيلة خمس عشرة سنة...

في الحقيقة، لم أكف عن حبك لكن أحببتك بطريقتي، أعني بطرق مختلفة... لنقل: أحببتك كـ "بابا نويل"... تماماً كما يحب بابا نويل الأطفال. إنه يمنحهم حبه بأشكال مختلفة عند إرساله هدايا مختلفة... قد كنت أفعل مثله تماماً...

لن أكذب عليك وأقول إنك كنت دوماً حاضراً في القلب والذاكرة، لا... قد كان حبي لك مثل حرارة الجو ترتفع وتنخفض وقد تصل درجة التجمد التام لكن حبك موجود لا يغيب ولا يغادر ذاكرة القلب...

صدقني، حين أراك، أتذكر مشاكساتك لي قبل خمس عشرة سنة... ما أزال أضحك حين تحضر على البال مشاغباتك التي لا تنتهي... ليتك واجهتني بحبك حينها، ولم تركض إلى صديقتي منال تطلب منها أن تسألني هل أستطيع العيش في القرية؟ أنا بنت المدينة، كيف كنت تريد أن يكون جوابي؟ ثم لم لم تبلغني أنت بحقيقة مشاعرك نحوي فربما كنت سأفكر جدياً في تغيير طريقة حياتي لأجلك؟؟؟... ليت بوحك كان بصوت أعلى لكنت استرحت وأرحت قلباً عشقك حتى النخاع دون أن تدري...

وأتساءل: هل ستعيش حياتك بأكملها بقلب فارس مغلوب؟...

أما أنا فسأظل أحبك ما دمت ستبقى تحبني لكن فارس سأحبك على طريقتي الخاصة.. سيبقى حبي لك في درجة الغليان أو عند درجة التجمد التام.. الأمر عندي أصبح سيان، وهو شعور مؤلم، لا تعتقد العكس...

***

وحل فصل الصيف...،
وعندما يأتي المساء
سأشغل المكيف
وأتكور داخل بطانيتي الزرقاء الجميلة
لأتوهم أنه الشتاء
عندها سأزين شجرة عشقنا
بالبالونات الملونة
بالصمت...

بالسكون...
بشغفنا المجنون...
وبلحظاتنا السرية
ثم أهمس لك:
أكل عام وأنت بقلب فارس مغلوب؟؟
وكل عام وأنا الغجرية المتمردة بجنون...،
أكل عام ونورس حبنا يقتات من حكايتنا كي لا يموت،
كي لا يتحول إلى عنقاء، كي لا ينسى طريقة التحليق ليلاً،
كي لا ينسى...
كي لا ننسى...
ليستمر ذاك البركان في الثوران رغم الخمول الجبري
و.....،
لا تحزني آلاء...
لا تحزني...
فقد كانت حكاية حبنا جميلة جميلة
كفتاة فاتنة القد والعينين
لا تحزني آلاء...
قد كان حلمنا جميلاً جميلاً
كطفل شقي مشاكس
قد كان وكنا...،
فلا تحزني آلاء

***

لا تحزني آلاء...
فحبنا حين غادر الحاضر
تجاوز الزمن
وعانق الأبدية
فأصبح سرمدياً، سرمدياً
قد أصبح وأصبحنا معه نعاقر الأزلية
فلا تحزني آلاء...

***

لا تحزني آلاء...
فعندما يأتي المساء
ويمر ذاك الطيف
ونتوق للتوق، للشوق
للهفة الانتظار، ولحظة الانصهار
سنسبح في مدارات العشق الفيروزية
وسنعي أن حبنا كان كبيراً كبيراً
أكبر من أن يحتويه الزمن
وأيامه الرتيبة
أو قلب فارس مغلوب
أو شهوة لقاء
فلا تحزني آلاء...

***

وبدأت عطلتي السنوية... اليوم هو أول يوم في الإجازة. وكم أنا

سعيدة كوني جالسة أشاهد مباراة في كرة القدم من الدوري الإسباني الأول حباً في نادي "ريال مدريد". أشاهد المقابلة وأنا آكل التين الطازج الذي أحضرته عمتي من البلدة. قشرت حبة التين وبدأت في شم رائحتها. شم الأكل قبل أكله عادة سيئة أمارسها ولا أستطيع التخلي عنها رغم انزعاج أمي من تصرفي هذا لكن لا أقوى على أكل أي شيء دون أن أشم رائحته، ماذا أفعل؟... وأووووووووه، كم أعشق التين... تعيدني رائحته الطازجة إلى أيام الصبا في البلدة وتوقظ حس الطفولة داخلي، وأتذكر بيت جدي رحمة الله عليه وعلى جدتي وليحفظ الله لي والدَي. والدي الذي ما زال رغم تجاوزي سن الأربعين يناديني باسم الدلع: لولو، وأمي لا تزال لغاية الساعة تشتري لي الشيبس الحار أو الفول السوداني المسكر عندما أطلب منها، وذلك لأنني ببساطة ابنتهما الصغرى...

حقاً، الذين يحبوننا لا يتركوننا أبداً...، أبداً، إنهم يسكنون القلب، ذاكرة القلب في الحضور أو الغياب، فهل يمكن أن ننساهم، هل يمكن؟؟؟... لا يمكن....

لا يمكنني أن أنساك إذن يا فارس.. لا يمكن... وأتساءل:

لماذا الذين يحبوننا لا يغادروننا؟.. لماذا؟؟؟.. ولماذا عندما تحاصرك حالة عشق يصبح جسدك منهكاً، منهكاً.. وتصبح الدنيا غير الدنيا، أم إن نظرتك للحياة هي التي تغيرت.. لماذا وضعك النفسي قبل العشق غير وضعك بعده؟؟.. لماذا؟؟؟.. لماذا بعد العشق نصبح نبتسم بلا سبب منطقي؟.. لماذا نضحك ثم نحزن في ذات اللحظة؟؟.. لماذا؟؟؟.. وهل حقاً الذين يحبوننا لا يتركوننا

أبداً؟.. هل حقاً يودعون في قلوبنا نجمة السعادة حتى لا ننساهم، حتى لا نتألم كثيراً بسبب الماضي، حتى ينقذونا من ألم الذكرى؟.. هل حقاً يفعلون ذلك بنا؟.. تشوش فكري ولم أعد أدري.. لم أعد أستطيع التفريق بين بياض العشق من سواده.. لم تتوحد المشاعر المتناقضة في العشق؟.. وكيف يحدث ذلك؟.. لا أدري.. حقاً لا أفهم...

***

وحل فصل الصيف...،

وهذا دليل على رحيل الشتاء..، وعلى رحيلك أيضاً.. ها قد مرت ستة أشهر على نهاية الحكاية.. ستة أشهر!!!.. كم الزمن ثقيل القدم، كم.. وأصرخ في وجه آلاء: كفى، لقد انتهت الحكاية، كفى...

لكن هل حقاً انتهت الحكاية؟...

وعدت إلى العمل بعد انتهاء الإجازة الصيفية. عدت وحين جلست على مكتبي، أخذت نفساً عميقاً بصعوبة.. تنفست بعمق، بعمق شديد.. وتساءلت في قرارة نفسي: لم أقوم بعملية الشهيق العميق والزفير السريع، هكذا؟.. هل كان جو البيت خانقاً رغم الإجازة أم هو الحر؟.. وأخذت نفساً عميقاً آخر تأكدت معه أنني أتنفس هواك، كيف ذلك؟؟؟.. لأنني موجودة في المكان الذي تسكن فيه روحك حتى وإن كان جسدك غير حاضر، هذا الذي أحسه ولا تسألني لم وكيف، فأنا لا أدري؟؟؟.. وأتساءل: هل حقا انتهت الحكاية؟...

وكان اليوم الأول للعمل غريباً.. لِم أجدني أكثر هدوءاً مما كنت عليه في الإجازة.. أنا التي كنت أسرع ركضاً نحو تقديم شهادة مرضية لأخذ إجازة من العمل.. ماذا حصل حتى تغيرت طباعي وميولاتي؟.. حبك سبب قوي وكاف لأتحول إلى آلاء أخرى، ليتغير اتجاه بوصلة حياتي مئة وثمانين درجة. وهل أنا بصدد مسامحتك ونسيان ما فعلته لي؟.. آه، تعبت من آلاء، ومنك، ومن الحكاية، ومن هذا المد والجزر لبحر حبك، من الذهاب والعودة إلى نفس المكان. وأصبحت أحس بأن لدي انفصام في الشخصية بسببك.. ها أنا أحبك وأرفض فكرة العودة لك.. ها أنا أكره حضورك لكونه أمراً متعباً وأمقت غيابك لكونه يقتلني، بل يجعلني أموت في اليوم ألف مرة رغم أني قد أتعمد ألّا أراك لأيام وأيام.. ستدمرين الأعماق ذات يوم يا آلاء، لا محالة بسبب تصرفاتك هذه. وعدت للعمل إذن. وعدت للقهوة كذلك. وأعلم أن العودة لشرب القهوة المرة وبهذه الكثافة إشارة سيئة تدل على وجود خطب ما.. إنه دليل قوي على الاستسلام، على زيادة الهشاشة في الروح، على ازدياد حبي لك رغم البعد.. وتنتابني رغبة ملحة في زيارة طبيب نفسي لمعالجة آلاء من هذا العشق المجنون. فنجان آخر والصداع تزداد حدته. رأسي سينفجر من كثرة التفكير. أهذه سادية عاطفية أم مازوشية مقبلة تطرق الأبواب.. أكرهك لأني أحبك.. سيدخلني حبك فارس مشفى الأمراض النفسية، وبرجلي، دون مساعدة من أحد، شيطان حبك يكفي ليبدع.. هل تعلم؟ حين أتحدث عن تفاصيل حبنا أحس بأنني أتكلم عن شخص مغاير غير آلاء وكأن هناك طرف ثالث

يروي ما حصل لهذين الطرفين.. هل ترى؟.. حبك على ما يبدو لم يسبب انفصام شخصية فقط، بل التشخيص يؤكد وجود مرض تعدد الشخصيات، وهو ليس مرضاً خطيراً، لكنه يجعل المرء يرغب بالانتحار دوماً لكثرة الضجيج.. يا إلهي، ما هذا؟؟؟.. هل سأنفجر نفسياً أم أنني على حافة هاوية حالة هذيان حادة لا شفاء منها...

***

عدتَ من الإجازة...

عدت.. وآه، كم آلمني ذلك البرود الذي لف لقاءنا المفاجئ في باحة الطابق الذي نعمل به. قد أوجعت قلبي، فهل سيسامحك؟. ولن أنكر، غضبت من ردة فعلك الباردة. كم كان اللقاء بارداً..، وصاعقاً. كان خارج كل توقعاتي الأكثر تشاؤماً. الآن، وبعد مضي ساعة من الزمن على ذلك اللقاء الغريب، يتناهى إلى سمعي صدى صوتك ينبعث من المكتب المجاور.. وأحسه عادياً، عادياً..، عادياً.. برافو.. لقد سكبت الماء المثلج على قلبي الصغير، فها هو يتجمد سريعاً، تجمد من صقيع لقائك ومن كلماتك. في العشية قدمت إلى المكتب بذاك الهدوء الغريب. دق الباب بكل لطف. قمت بالرد دون أن أهتم بمعرفة المتحدث:

– نعم.

– مساء الخير آلاء، قالها بكل احترام (وهو طبعه، لم أنكر).

تفاجأت بحضوره فخرج صوتي من الحلق بصعوبة لأقول:

– مساء النور.

– كيف حال أختي؟

– نعم!!!..، لا بأس... (و أنا مندهشة).

قلت في قرارة نفسي: أأأوه، وأصبحت أختك الآن. جميل. يا لسخرية الأقدار. نظر إلي دون أن يتفوه بكلمة أخرى ثم طأطأ الرأس وغادر...

والله، برافو. لقد سكبت بكل احترافية الماء المثلج على روحي.. برافو، سكبته أيضا – دون رحمة – على ذاك القلب المسكين الذي احترق بسبب غيابك. ماذا جرى آلاء؟.. تماسكي. أما زلت ترضين بالانجراف نحو هاوية عشقه المجنون...

إذن تبخرت كل سيناريوهات اللقاء ذات الألف مشهد فلم يدم اللقاء الأول إلا ثواني. قد كان هناك مشهد لحرارة الاشتياق، ومشهد للعتاب، ومشهد لجبر الخاطر، ومشهد للوم ووو.. مشاهد عديدة للتعبير عن أحاسيس عديدة.. في النهاية، لم ير النور إلا مشهد البرود العاطفي الحابس للأنفاس.. كم أرغب في البكاء.. البكاء على هذا القلب الذي يتألم الآن. لن أسامحك يا فارس لأنك أرقت منامي وبعدها تتركني أتجرع وجع الغرام وحدي... لم ثرت بعد خمس عشرة سنة لتقول: أحبك ثم ترحل، لم؟؟؟؟.. وأبدأ بالبكاء. وأحسد زوجتك التي بنظري تجهل قيمة حضنك الدافئ وما قد تمنحه تلك النظرات الهادئة من طمأنينة، أحسدها.. تمنيت كذلك لو أنها لم تأت إلى هذا العالم فلقد أخذت أغلى شيء كان سيمنحه لي القدر لولا وجودها...

شب حريق مروع حول قلبي المجمد، وأتنهد بعمق. أغلق عيني بكلتا يدي. أقوم متثاقلة لأطفئ الضوء، وأغرق في حزن

شديد.. هل يمكن أن أسامحك يا فارس يوماً على كل ما فعلته بي؟.. واكتشف فيك صفات جديدة لم أنتبه لها رغم معرفتي الطويلة بك (أكثر من خمس عشرة سنة)، فكم أنت بارع في التجاهل.. كم أنت ماهر في توصيل إحساس البرود العاطفي.. كم أنت بارع في الخذلان والهروب.. كم أنت ماهر في اختصار ثورة البركان إلى لهيب شمعة.. كم أنت بارع في جعلي أحزن.. كم أنت بارع في جعلي أتجرع المرارة.. كم أنت ماهر لدرجة لم أستطع التصفيق لك على هذه الموهبة الفذة بل جعلتني أتسمر حيث أنا وأتفاعل مع عالمي بهدوء قاتل، بكل هدوء الموتى.. وفي الحقيقة، أنا قد مت منذ شهور.. أنا جثة تجمدت بسبب الصقيع الذي اجتاح الأعماق.. برافو، لقد نجحت من جديد في تأدية دورك، وفشلت أنا من جديد في أداء دوري، في إتقان دور العاشقة التي طوت سجل الأحزان لتعيش حياتها بعيدا عن الهموم والآلام.. فشلت، لن أنكر.. فاشلة وغبية.. وها هي صفات جديدة اكتشفها في شخصية آلاء.. قد كنت أعتقد أني أكثر شخص في العالم يكره الفشل ويمقت الغباء فإذا بي أكثر من يستحق أن يصنع له تمثال يكون رمزاً للفشل والغباء.. وأصبحت غبية وفاشلة لمجرد أني أخلصت في حبي لك..، لأني تركت قلبي يتتبع نظراتك ويلازمها كعباد شمس.. برافو.

***

بالأمس كانت ذكرى عيد ميلادي. احتفلت مع العائلة. كانت الحفلة بسيطة لكنها جميلة جداً. ولأنه فصل الصيف، والليلة كليلة حلم صيف، خرجنا جميعاً بعد الحفلة لنكمل الاحتفال في

كافتيريا عائلية وسط المدينة تصنع مثلجات مميزة إلا والدي آثرا الخلود للنوم بعد تأدية صلاة العشاء. وصلنا لمحل المثلجات الباردة جدا وبقينا هناك لأكثر من ساعة جالسين نحاول الاستمتاع بالمثلجات والعصائر المتنوعة. بعدها بدأنا نلف وندور في أهم شوارع المدينة. وكم كانت مدينة الزيبان جميلة ومختلفة ليلاً بسبب الأضواء والمصابيح الملونة التي تلف الأشجار المترامية على طرفي الطرقات الرئيسة. اتجهنا نحو مبنى الجامعة ثم عرجنا على الإقامة الجامعية فالحديقة العمومية "أول نوفمبر". لم نترك مكاناً يمكن الوصول إليه أثناء طريق العودة إلا ومررنا به. كانت الساعة تشير إلى الحادية عشر ليلاً حين عدنا للمنزل. في السيارة فاجأني إخوتي بالهدايا. كم فرحت لهذه اللفتة الجميلة.

***

الساعة تقارب منتصف الليل، ها أنا أتكور داخل بطانيتي. بدأت بالتفكير، وتساءلت: يا ترى ما هي أجمل هدية كان يمكن أن تقدم لي في يوم مميز كهذا؟.. وتذكرتك، ولا أدري لم غمرني سرور غامض: ماذا لو كنت أنت هدية القدر لي هذا العام بدل العريس الذي طل عشية عيد ميلادي دون سابق إنذار.. يا إلهي.. عندما أتذكر ذاك اللقاء أنزعج كثيراً.. أنزعج من هذا القدر الذي يلعب بعواطفي وبرغبتي التي تلح في تكوين أسرة صغيرة تكون بهجتها بنوتة حلوة اسمها "أميرة".. مرت لحظات اللقاء كأنها دهر. قال لي بأنه قدم من طرف أحد معارفنا وأنه يطلب الزواج. ارتفع حاجبي ونزلا سريعاً، استغربت الأمر تماماً كما تفاجأت به. لن أكذب: لم

يرق لي الرجل بتاتاً – بالأحرى لم أستطع هضمه، والأدهى اسمه. أقسم لك أحسست بأنه سيغمى علي حين تلفظ به:

– السلام عليكم، اسمي فارس، أنا الرجل الذي حدثتكم عنه مدام تحية.

يا إلهي.. هل يمكن؟.. لا يمكن.. لا يمكن أن أتزوج رجلاً يحمل نفس اسمك؟.. لا يمكن.. هل القدر يسخر مني إلى هذه الدرجة؟.. هل سأستطيع تحمل حياة كهذه. لا يوجد إنسان يستطيع تحمل ذلك، لا يوجد.. هل سأستطيع النظر في وجهه والتبسم له ثم مناداته: يا فارس، أرجوك أحضر لي كوب ماء، مثلاً.. بحق السماء، ما هذا!!!.. لن أستطيع...

تحدثنا بشكل متحضر. قال لي بأنه سيكون جد سعيد لو تم قبول طلبه من طرفي. قدم تقريراً مفصلاً عن حالته العائلية ومهنته. ابتسمت ثم قلت له بأن كل شيء قسمة ونصيب ونخبر مدام تحية بقرار العائلة حول الموضوع. بعدها غادر المكتب.. وانهرت.. انهرت تماماً.. تهالكت على كرسي وأحسست بأن دماغي قد أصبح قريباً من حالة الجنون.. هتفت لأختي الكبرى فلم ترد. هتفت لصديقتي دعاء فلم تجب. هتفت لصديقتي دنيا ولم تجب. هتفت لأقرب صديقاتي ولم ترد أي واحدة منهن. بقيت أنا وحدي منهارة فوق الكرسي أجتر لحظات اللقاء وأفكر. دائماً آلاء هي من تطبطب على كتف آلاء.. ألم أقل لك: يا صديقي، في الزحام، لن تجد أي أحد.. لا أحد.

***

الساعة منتصف الليل. هدايا عيد الميلاد بجنبي. أحد إخوتي أهداني حامل مفاتيح به حصان بحر صغير ذهبي اللون. قال لي بأن حصان البحر رمز جالب للحظ.. ضحكت واعتبرتها مزحة منه. قبلته وشكرته على الهدية. الحظ.. أي حظ هذا الذي أملكه يجعل فارسي مغلوباً على أمره دائماً.. أي حظ هذا الذي يجعل فارسي يعشقني بكل جنون وظروفه لا تسمح بأن نتزوج.. أي حظ هذا الذي يجعل القدر يرسل لي عريساً يوم ميلادي وله نفس اسمك.. أي حظ هذا الذي منح القدر فرصة ذهبية للسخرية مني إلى ذلك الحد.. لكن، هل تدري؟.. ربما أنت كل حظي يا فارس في هذه الحياة.. ربما حبك الذي دام خمس عشرة سنة هو حظي من هذه الدنيا.. ربما اعترافك لي بحبك لي هو كل حظي في العشق.. أن تعشق ولو مرة في الحياة أمر جيد فهناك أناس عاشوا وماتوا دون أن يذوقوا حلاوة الحب مع أنهم قد يكونوا متزوجين ولديهم أولاد. بنظري لا علاقة بين حالة العشق ومؤسسة الزواج. أمر مميز أن تحب وتحب ولو مرة واحدة في الحياة – بغض النظر عن تفاصيل الحكاية –.. وأذكر حين قلت لي تلك العشية:

– أتعرفين آلاء ذلك البيت الشعري الذي يقول:

ليت الذي بيني وبينك عامر

نظرت دنيا إليك ملياً وبدأت في رفع حاجبها لتهاجمك ساخرة – وهي متعودة على ذلك معك لذا لم أره اهتم بها بل بقي ينظر إلي وينتظر جوابي – ابتسمت وقلت رغم استغرابي لسؤاله:

– طبعاً أعرفه. لاحظ أنك تتجول حيث غابة عشقي. وأكملت لك الشطر الثاني من البيت الشعري:

ليت الذي بيني وبينك عامر

وبيني وبين العالمين خراب

ثم رفعت يدي وصفقت قائلة:

– أحسنت فارس. أحسنت. ثقافتك الشعرية جيدة. لم أكن أعرف ذاك.

ربما هذا ما قصدته حينها. أن أعرف أن ثقافتك الشعرية لا بأس بها رغم بعدها عن دراستك الجامعية وأن أكمل أنا البيت الشعري لتصل الرسالة المطلوبة عبر شيفرة الشعر...

والآن، وبعد أن قبلت بأن أعمر الذي بيننا، انسحبت من رقعة الشطرنج بعد أن لعبت أنت والقدر بي...

على فكرة، تم رفض العريس، فرغم أني تجاوزت الأربعين لن أجعل السن عبئاً يؤرقني لأقبل أي عريس يتقدم لخطبتي. لن أفعل. حدثت أمي بلقائي مع ذلك العريس. قالت بأن الأمر كله بيدك وعليك أن تقرري بنفسك دون تدخل من أحد فالعائلة للمساندة وليست وسيلة ضغط. نظرت إليها وقلت:

– لم يعجبني أمي. تعلمين.. تأكدي أنني سأجلب لك يوماً شاباً في عمر العشرين ليطلب يدي منك.

صرخت في وجهي:

– أغربي عن وجهي يا وقحة، جيل آخر زمان.

بعدها غادرت الغرفة...

طبعاً وقحة لكنني لن أتزوج لمجرد تحقيق مشروع الزواج. الزواج ليس ثكنة عسكرية علينا دخولها لتأدية الخدمة الوطنية اتجاه المجتمع. الزواج متعة من متع الدنيا منحها الله للإنسان فإذا لم يتحقق الهدف من الزواج لن أتزوج. يتملكني دائماً إحساس بأنني ملكة حلم ليلة صيف جميلة. وشكسبير ليس مجرد مبدع عظيم فقط إنه عاشق عظيم كونه استطاع التجول داخل الأماكن الخفية للإنسان المحب. وأنا لن أقبل بأقل من دور بطولة مميز في مسرحية الحياة هذه، فإما كل شيء أو لا شيء. في سني هذا، لم تعد تعنيني التفاصيل كثيراً. ما تعنيني هي آلاء.. أن تكون هذه المرأة التي بقيت مدة طويلة وحيدة أن تشق طريقاً مستقيماً كله سعادة.. لن تتزلف للأقدار ولن ترتشيها.. ستقبل بهبة الرب عن طيب خاطر ولن تعترض فإن منع عنها فهو قد منحها نعماً كثيرة. سأنام الآن فقد كان يوماً مرهقاً نفسياً تخللته لحظات عائلية جميلة.. سأنام وأتمنى أن أرى خيالك في المنام لأني سأبقى يا فارس سعيدة بحبك لي رغم معارضة الأقدار فكرة اجتماعنا.. سأظل أحبك ما دمت تحبني رغم الظروف... اقرأ ذلك في عينيك كلما نظرت إلي... تأكد أني أعلم أنك تحبني مع ذلك سأبقى أكررها دوماً: فارس أنت فارس رائع وعاشق أروع وتملك قلباً رائعاً لكنه قلب لفارس مغلوب. غلبته الظروف سابقاً وحالياً.. قدرك أن تبقى دوماً مستسلماً لظروفك وقدري كما يبدو أن أبقى حتى إشعار آخر أحب فارساً مغلوباً على أمره.. يا لهذه الحياة.. ويا لهذا الحظ.. سأنام فقد بدأ رأسي يتثاقل من وجع حبك... سأنام...

***

والتقينا هذا الصباح. يا ليتنا لم نلتق... تخيلوا، تواجهنا أمام باب مقر العمل وبجانبه ابنه. لأول مرة يحضر ابنه إلى العمل. كيف عرفت أنه ابنه؟. ببساطة سمعت فارس يناديه والولد الذي كان يلعب بعيداً عنه ركض إليه بسرعة حين سمع صوت أبيه. التقينا ويا ليتني لم أنظر إلى عيني ابنك فلقد تفجر تسونامي بداخلي. لا أدري لم نظرت إليه بعيني المرأة الأم؟... أحدثت رؤيتي للولد هزة عاطفية كبيرة جرفت ما تبقى من حكايتنا المنتهية. هل الأطفال حقاً ضغط من ضغوطات الحياة؟. لأول مرة، أقف في صفك وأساندك. لأول مرة أقف إلى جانبك دون أن تتملكني تلك الرغبة الجامحة في النظر إليك بسبب الشوق. لأول مرة، أخجل من حالي. وأتذكر كلمات غادة السمَّان التي كتبتها بعد حادثة وجودها بسيارة الكاتب غسان كنفاني ووقوع يدها على لعبة ابنه (كانت اللعبة مسدساً). تذكرت كلماتها التي تفجرت داخل رأسي كألغام. وقد قالت: "مسدس ابنك قد قتلني يا أيها الشقي".. لو تعلمين يا سيدتي الجميلة أن النظرات تصيب الهدف أكثر من المسدس حين تكون من عيون بريئة. قد رأيت بأم عيني كيف ترجمت سرعة تحرك الولد نحو فارس ذاك الإحساس الذي يحمله الابن تجاه أبيه، وكيف يحس بالأمان بجانبه. قد كان التقاط ذاك الشعور قاتلاً لي، قاتل.. إذن هذا هو ابنك. طفل برئ، جميل، بشرته بيضاء كالحليب، ملساء كالمرمر، يقارب عمره ست سنوات على ما أعتقد، ويملك عينين عسليتين جميلتين تشبه عينيك يا فارس. آه.. آه، منك ومن عينك، ماذا فعلتا بي؟.. ماذا كنت ستفعلين

يا آلاء؟.. هل كنت ستحزنين هذه البراءة بأنانيتك؟.. بجعل أبيه يغمرك بحنانه بدل أن يغمر ابنه.. لم تتملكني هذه الأحاسيس المتناقضة؟. لم ينتابني مشاعر المرأة العاشقة والمرأة الأم.. المرأة الراغبة في بناء عش زوجي سعيد والمرأة التي ستدمر عشاً زوجياً لا أدري إن كان سعيداً أو لا؟.. لا يعنيني الأمر لكن هو بالنهاية عش فيه فراخ صغار ما زالوا محتاجين لرعاية الأب. منظر الطفل جعل قرار البعد يتعمق داخلي أكثر.. سأرحل يا فارس بعيداً عن نظراتك، سأعتكف بمكتبي ولن أخرج منه إلا للضرورة القصوى.. سأبني محراباً في قلبي أنزوي فيه لعل الرب يغفر لي خطاياي، خطايا هذه الغجرية التي بداخلي. تلك الغجرية تعذبني بجنونها وبعشقها للمستحيل. تعذبني وأنا تعبت منها.. تعبت. والآن تعبت أكثر بسبب نظرات ابنك، كم أتعبتني رؤيته.. ها أنا أقبل الهزيمة أمام ضغوطات حياتك. سأرحل وليغفر لي قلبي هذه المساندة لضغوطات الحياة كون الأسباب أراها جد وجيهة.. سامحني يا قلبي الصغير فرؤيتي للصغير غيرت طريقة تفكيري.. سامحوني لأني انجرفت نحو حبي القديم الجديد...

***

في الحقيقة، نظرات ابنك لي شرعت للخوف باباً.. عيون ابنك سمحت للخوف – دون إذن مني– بالدخول إلى الأعماق ليهب على شجرة عشقنا.. نظراته البريئة أحرقت بقايا هذا الحب الذي يحتضر أصلاً.. ها هي طفولته تقاتل ذاك الإحساس الجارف بالتوق، ذاك الشوق، تلك الغيرة، تقاتل جنود الهوى المرابطين حول

جزيرة حبنا السرية لحمايتها من أهوال المحيط.. سأرحل لأن ابنك باقٍ.. سأرحل لأن خياراتي تقلصت حتى حدود الصفر الصحيح.. سأرحل لأن ابنك لا خيارات لديه عكسي أنا، أنا المرأة العاشقة، المجبرة على اتخاذ قرار أكثر جرأة، أكثر صرامة، أكثر قوة، أكثر حزماً، أكثر إصراراً.. سأرحل فلقد غرست نظرات ابنك كخنجر حاد داخل القلب وتمزقت الذاكرة بسبب ذلك، وتشتتت الأفكار، وبددت كل أحلامنا المجنونة.. سأرحل لأنه حين دخلت براءة ابنك من الباب لذاكرة القلب خرج جنون العشق من النافذة وتبخر كل حبنا في الفضاء.. تبخر.. تبخر.. تحول إلى ذبذبات صوتية تئن بصمت عالٍ غير مسموع، هناك بعيداً حيث الثقوب السوداء.. وإذا أردت سماع أنين عشقنا ما عليك سوى أن تغمض عينيك ليفتح الحراس أبواب الأعماق.. واحترس فذاك الأنين يخاف نظرات ابنك كثيراً.. يخاف فأخاف من خوفه.. أخاف...

***

كم رغبت في التحرر منك.. كم رغبت في الهروب من كل الأماكن التي توجد فيها.. وكم أرغب في مقت تفاصيل وجهك، عينيك، يديك، قدك الرجولي الرائع.. كم أرغب في الذهاب دون العودة.. كم أرغب في الرحيل لا البقاء.. كم أرغب في نسيان حبك.. كم أرغب أن تموت أحاسيس كثيرة، جميلة جعلت شجرة العشق تورق من جديد.. كم أرغب في نسيان أنك حين كنت رجلي كنت وطني واسمك عنوانه.. كم أرغب في أن أجمد قلبي، أيامي، جنوني حتى أنساك وأنسى لحظات حبنا المميزة، التي سرقناها

خلسة من رتابة الأيام المتشابهة.. كم أرغب في إطلاق رصاصة الرحمة على قلبي ليموت وأنتحر بعده لعلي بعد ذلك أستطيع كسر قيود حبك التي تكبلني بقوة.. كم أرغب في أن أغادر عالمك لأبدأ من جديد.. كم أرغب...

***

وما أزال أكتب.. ما أزال أكتب عنك، عني، عنا، عن حكايتنا، وعن ابنك أيضاً.. هل تدري أني ذاك الصباح حين رأيتك تنادي ابنك وهو يركض نحوك تملكني إحساس غامض، غريب، غريب جداً.. تملكني إحساس بأنك كنت تقتل الرتابة بحبنا لا أكثر، ولا تسألني لم فكرت بهذه الطريقة؟...

تساءلت: ربما الزوجة التي تمارس معها الحب لا تمنحك عمق العاطفة، ولا دفء المشاعر.. أو ربما تسلل الملل إلى حياتك الزوجية.. أو ربما الأيام تمنحك الرتابة لا وهج الشجون.. أو ربما القلب معها يمنحك التعقل لا الجنون.. تملكني يا فارس إحساس سخيف بأنك جئت إلي لأمنحك متعة الاختلاف ولذة العشق وجنون قصص الحب الأسطورية.. ودائماً ما أتذكر تلك الصباحات التي نبدؤها بقول: كيف الحال؟ مع أن كلينا يريد أن يقول: صباحك سكر، كم أعشقك.. أو حين قلت لي:

– أنت يا آلاء مختلفة..، مختلفة تماماً عن كل البنات فكل ممارساتك الحياتية تثير الدهشة ولا تشبه ردود أفعالك الآخرين. لا يستطيع أي شخص توقع ما ستفعلين.

وحين قمت تلك العشية بطلاء باب مكتبي بالدهان الأبيض

حتى تحول إلى لوحة سوريالية (السبب أن كمية الدهان كانت قليلة، وأنا أصررت على أن أكمل كل الباب بالكمية المتبقية لذا بدأت بالتقشف والقيام بعملية مسح خفيفة على الباب الخشبي). وضحكت كثيراً من تصرفي. هل توقعت أنت أن أفعل أنا ذلك؟ وكم استغربت!.. أنا أدهن الباب وأنت تتمعن في كيفية طلائي له وتضحك. وحين انتهيت. قلت لي:

– لقد حولته بطريقتك المضحكة في الدهن إلى لوحة تشكيلية.

أجبتك وأنا أبتسم فخورة بعملي بعد أن رفعت حاجبي قليلاً:

– بل تحول إلى لوحة سوريالية رائعة.

انفجرنا ضحكاً، واعتبرت ما تقوله مجاملة مميزة من عاشق مميز.. ولم أفكر في حديثك كثيراً.. ربما أنا مختلفة، لا أدري؟.. ربما لهذا السبب عشقتني.. عشقت الاختلاف المتفجر في... عشقت جنوني... عشقت آلاء لأن لا أحد يشبه آلاء، ولا حتى زوجتك قطعاً..، ولا حتى زوجتك رغم أنها تمنحك الحب كرجل.. وأتساءل: ألم يكن النكاح كافياً لتعيش السعادة التي تأملها من الحياة، أو لترفرف فراشات الفرح في سماء قلبك وفي روحك؟.. أتساءل؟؟؟...

***

ها أنا أجدني حتى – بعد أن تجاوزت الأربعين – ما أزال ألملم أشلاء عاشقة وأشياءها العتيقة.. ها أنا أجدني – بعد أن تجاوزت الأربعين – أجمع بقايا امرأة رغم كثرة عشاقها تنزوي هناك وحيدة بليالي الشتاء والصقيع.. أجدني ما أزال أمارس طقوسي القديمة حتى بعد أن تجاوزت الأربعين.. ما أزال أشرب القهوة مرة، ساخنة،

ما أزال أدون بنات أفكاري بالقلم الأسود على الورق الأبيض.. لا تزال يدي هي اليد الوحيدة التي تطبطب على كتفي لأستطيع التنفس بعمق.. أجدني – بعد أن تجاوزت الأربعين – ما أزال تلك الشقية، المشاكسة، الذئبة المتوحدة الرافضة لفكر القطيع، العاشقة للحرية، وللأبدية، وللحظات العشق السرمدية التي اقتنصتها خلسة أو عنوة من الحياة...

لكن...

هل يملك الغجر غير هذا القدر؟...

وأتساءل: ألا يحق لهذه الغجرية أن تسكن بأحد المرافئ؟.. وأبتسم لها تلك الابتسامة الغريبة التي لا تفارقني حين أراها – في كل عيد حب – تجمع قصاصاتها العتيقة لتصنع منها وسادة تتكئ عليها عندما يحل مساء الشتاء البارد...

ولأن للحرية ثمن، وللتمرد ثمن، وللغربة ثمن، وللعشق ثمن، وللفراق ثمن، وللكتابة ثمن، ها هي الغجرية التي تسكن الأعماق تقرر مصيرها ومصيري.. وأنا لا أملك إلا قدر الكتابة لأستظل تحت أفنانه لعل حبي لها يشفع لي شطحاتي الصيفية التي أنبتت وحدة شتوية وكتابات غجرية هي باختصار: حكاية عاشقة، عاشقة المستحيل.. عاشقة صامدة، صامتة لاكتشافها أنه لا خيار للغجر غير الحرية قدراً...

***

ولأني امرأة تمردت على القبيلة...، ولأني ذئبة متوحدة ساقها حظها العاثر في الحب لعشق أسد مغلوب تتحكم فيه الأشبال

واللبؤة...:

ولأنك تحبني بشدة، سأرحل
ولأنني أحبتك حد الهذيان، سأرحل
سأنزوي هناك كقنفذ تتأهب أشواكه للإعصار
خائف من الدمار
سأرحل...
فقد كان عشقنا لحظة جنون جميلة
سأرحل...
ريثما يهدأ الإعصار عن الجزيرة
وتخبو شرارة عشقنا
وينطفئ هوانا
وتغرق الجزيرة
سأرحل...
لعلي بعد ذلك، أستسلم للأقدار
أعانق الغياب، وأرضى بالأعذار
وأواصل المسير بدونك
وأحترق بدونك
وأقاتل القبيلة بدونك
وأتأوه بدونك
وأمارس جنوني من جديد بدونك
فأنا كنت دوماً يا فارس رغم حضورك وحبك...، بدونك

***

وكفى، لا أريد أن أستمر في الكتابة عنك...

كفى، لا أريد أن أستمر في الدوران والتوهان داخل حلبة عشقك فلقد سئمت السقوط...

كفى، لا أريد أن أستمر في قول كلمة "أحبك" فقلبي لم يعد يصدق بل تعب من هذه الكلمات السخيفة رغم سحرها الأخاذ...

كفى، لا أريد أن أحترق أكثر بذلك الشعور البارد الذي يغمر الأعماق...

كفى، لا أريد أن أضل طريقي معتقدة أني أسلك درب الخلاص...

كفى، لا أريد أن أنجرف نحو هذا الزمن الذي لا يأتي ولا يولي...

كفى، لا أريد هذا العشق الذي لا يموت ولا يحيا...

كفى، لا أريد هذا التوق الذي لا يخبو ولا يستعر...

لم أنساق نحو ذكريات لا تفرح ولا تحزن.. لم؟؟؟.. وأتساءل: لم يصبح المرء يا آلاء سخيفاً، وتصبح الحياة مملة بلا طعم حين تغادر الروح دائرة العشق، لم؟؟؟؟...

***

بعد شهور حيث امتدت مدة عدم الالتقاء بيننا لشهور كون فارس خرج في إجازة لمدة تزيد عن الشهر وأنا قبل عودته فعلت ذلك، التقينا، أو بالأحرى تواجهت عيوننا للحظة وكأنها ثانية قررت الفرار من سطوة الزمن لأجلنا.. أحسست حينها بأن الأدرينالين ارتفع لأعلى نسبة.. وتأكدت: لا شيء يموت، لا شيء يمحى من

الذاكرة.. لا شيء.. قد يغفو، ربما.. قد يتوارى، ربما.. قد يخدر بأفيون الواقع، ربما لكن لا يمحى.. لا يمحى...

رفعت رأسي عن ذراعي المنهار فوق المكتب لأجد دمعة وحيدة هاربة من مقلة العين اليمنى. مسحتها وقمت لأكمل عملي، متثاقلة.. كم أرغب في الضحك بعفوية ومن العمق.. وأتأكد من حقيقة تجاهلتها مرغمة لشهور: "قد كان في القلب حياة والآن هو في حالة سبات".. يبدو أننا لم ننس ولم نستطع فقد فضحتنا تلك اللحظة.. وها أنا من جديد أمام نظراته التائهة، الهاربة من مواجهتي كالعادة.. إذن، لم أنس ولم ينس.. لم ينس...

آه.. رأسي بدأ يؤلمني من جديد.. كم يلزمني من مورفين لأسكت هذا الصراخ الذي أسمعه يأتي من الأعماق..، كم يلزمني؟؟؟.. وعذراً يا أيتها الغجرية عجزت عن المقاومة.. عجزت للحظة، للحظة...

***

إن العشق حياة القلب إذن، وبدونه نحس بأنه ميت، قلب ميت.. العشق يجعلك تحلق عالياً، تطير فوق السحاب كنورس أبيض جميل ينظر للبحر مبتسماً وضاحكاً.. إنك مع العشق تكتشف أشياء جديدة، أبجديات جديدة، لغات جديدة، آهات جديدة، عبارات جديدة، صمتاً جديداً، سكوناً جديداً، كلاماً جديداً، تنهيدة جديدة، نظرة جديدة.. باختصار: حياة جديدة.. هذا ما قد يمنحه العشق لك.. هذا ما قد يبوح به العشق لكل قلب وحيد وجد أخيراً توءمه.. وهذا لا يعني أن هذين العاشقين سيجتمعان.. إنها الأقدار

تمارس لعبتها المفضلة مع العشاق حين تتقاطع مصائرهما في لحظة عشق، ثم ترفض منحهما فرصة الاجتماع لكن رغم كل الظروف تبقى عيونهما تفضحهما في أي مجلس.. ستبقى تلك الحيرة في العيون حتى وإن اجتمعا بأشخاص آخرين.. ستبقى تلك الغصة في الحلق.. تلك الحشرجة في البلعوم.. تلك الحرقة في القلب.. تلك المحبة في الروح.. تلك الفوضى المحببة التي تقلب حياتك فتصبح عقارب ساعتك البيولوجية تتحرك وفق أوامره.. ستبقى أشياء وأشياء لا يباح بها فقط العيون تفضحها في لحظة تلصص عليها...

وقد تتساءل: متى تعرف أن العشق قد تحكم فيك حقاً؟

سأجيبك قائلة:

يحكم الحب قبضته عليك حين تمسك رأسك بقوة، ولا تستطيع عزل الآلام عنه.. حين تتملكك تلك الرغبة المتوحشة في تفجير دماغك لعلك تستريح للحظات من معاناة التفكير فيه.. حتى إنك قد تفكر لبرهة من الزمن لو أن هذا العاشق لم يأت للوجود أصلاً، أصلاً.. كل هذه الأفكار قد تضرب عقلك لتزيد من تشويشه فتتفاقم مأساة حبك له.. إنها تتفاقم بدل أن يحدث العكس!!.. ولا تسألني: لماذا وكيف ومتى هذا العشق حضر وتحكم؟.. لا تسأل الحب عن هذه التفاصيل فهو لا يفهم الكلام، إنه قرر – لحاجة في نفسه – أن يزورك أنت لا أحد آخر واليوم لا يوم آخر ويذهب عن عينيك النوم أنت لا أحد آخر.. لا تسأل لماذا أنت بالذات فلن يجيبك.. لا تسأل كيف حدث هذا لك فلن يهتم لحالك.. لا تسأل متى فهو

المتحكم بالزمان والمكان.. لا تسأل لم بهذه الطريقة وليس بطريقة أخرى، لم هذا الدرب وليس درباً آخر، لم في هذا الفصل لا في فصل آخر، لم القرب ثم البعد، لم التوهان ثم الإدمان.. ولم ترفض الذاكرة أن تتحول – كما هي العادة – إلى أداة للنسيان، لم.. من قال إن البعد عن المكان وبالزمان قد يجعلك تنسى، من قال؟؟؟.. أولم يقل قيس:

قضى الله بالمعروف منها لغيرنا

وبالشوق والإبعاد منها قضى ليا

***

ألا يا حمامات العراق أعنني

على شجني ابكين مثل بكائيا

***

فشاب بنو ليلى وشاب ابن بنتها

وحرقة ليلى في الفؤاد كما هي

كم أرغب الآن في تهوين الأمر على نفسي لكن لا أستطيع.. أقول لها: بحق السماء، هل هناك من يعرف زوج ليلى العامرية. هذا الرجل الذي سعد بقربها. إن التاريخ خلد لنا اسم قيس العاشق لا اسم الزوج، فهوني عليك يا آلاء.. وأؤكد لك، إننا كعرب، بلا شك احترمنا الحب العذري لقيس تجاه ليلى، بل قد نكون تعاطفنا معه بعد أن قرأنا قصائده اليائسة تلك لكننا حقيقة لم نحس ما أحسه، ولم نستوعب عمق مشاعره، إنه مات عشقاً، ومات شوقاً، ومات توقاً، إنه ميت، ميت رغم أنفاس الحياة التي تتلاحق داخل

رئتيه. لقد آلمته الحرقة، الغربة، الوحدة، البعد، الرغبة المتوحشة للاجتماع ...إلخ.

وتتملكني رغبة غريبة. كم أود لقاء ابن الملوح، مجالسته، محاولة التأكيد له بأننا نتفهم همومه وربما قد نصبح أصدقاء مقربين لأنه سيكون رائعاً لو يقاسمني ألمي ويقرأ دفتري. أعلم أن عشقه أعتى من إبداعه وأن الاثنين يتصارعان للخلود كالجبابرة، وأن إبداعي أنضج من عشقي وأن حبي لا يستطيع حتى رفع عينيه أمام الإبداع لحظة الكتابة – وهذا بحكم الزمن – لأن العرب قديماً غير العرب الآن، وأنا لست إلا جزءاً من قومي. متأكدة كذلك أنه سيقول لي:

آلاء يابنتي. سأخبرك شيئاً مهماً:

مع الأيام سيصبح الذي يوجعك الحب لا المحبوب، العشق لا المعشوق. إن ما قد يقتلك حقيقة كل ثانية ويجعلك تختنقين هو جذور شجرة العشق تلك، هو هذا الحب، هذا الإحساس الذي يلتف حول جسدك كالأغلال، ويعتصر قلبك، ويجعلك لا تقوين على الحراك، ولا على التفكير، ولا حتى على قدرة تحريك رقبتك يميناً أو يساراً. ذلك ما قد يفعله العشق بك. سيمزقك ثم يمزقك وبعدها هل سيشفق عليك؟ لا، سيظل يمزقك حتى تسري في عروقك مشاعر الخيبة الكبرى، والرغبة الشديدة في الانتحار من أعلى جبل قد تصل إليه قدماك. لن ينقذك من هذه الحالة إلا الكتابة، الكتابة بكل إبداع وعبقرية.

أما أنت فلن أحملك أكثر من طاقة إبداعك. اكتبي، اكتبي

بعبقرية أو بغباء، ليس مهماً، فهل سيكون لهذا الأمر لحظة انكسارك أية أهمية؟ لا، الأهم أن تكتبي وتكتبي لتتحرري من تلك الأغلال الدامية لعلك تستنشقين بعد ذلك قليلاً من أنفاس الحياة..، لعل...

لذا يا فارس:

هنيئاً للأدب بفجيعتنا إذن..، وهنيئاً لك لأنك يوماً بعد آخر تحول قلبي بكل براعة ومهارة إلى قطعة جليد صلبة، قاسية. لو تعلم كم هو صعب أن تحب عند درجة التجمد التام.. كم هو صعب.. إن الاحتراق أمر سهل مقارنة بعملية تجميد قلب يحترق، يعاند، يرفض الاستسلام، يقاوم لكن جبال الجليد تهزمه وتغرقه داخل محيط الذكريات ليهوي رويداً رويداً بعيداً هناك حيث قاع مدارات الماضي المظلم والبرودة السرمدية. أنت لم تجرب هذا ربما أما أنا فها هو يحدث لي للمرة الثانية. المرة الأولى كانت قبل خمس عشرة سنة، حين أخذت قراري بعدم استطاعتي العيش في القرية بكل تلك الحدة، ثم تزوجت من تلك المرأة...

منهزمة، لا أنكر.. أخبئ وجهي بين يدي وأبكي بحرقة شديدة. نعم، لم أنكر؟.. كم أتمنى لو أستطيع سؤالك أو سؤال قدري:

لم في كل مرة تمنحون قلبي المسكين أحلى حب وأحن عاشق بضعة أسابيع ثم تحرمونني منه بعد ذلك؟.. لم؟.. بحق عزة الله وجلاله، أريد أن أعرف، لم تحب دائماً يا فارس أن تمنحني حبك الرائع ليصبح ذكرى، مجرد ذكرى، لم؟؟؟؟؟؟؟...

***

ها هو فصل الشتاء يقبل رويداً رويداً، بكل خجل.. ها هي الأيام تغدو ثقيلة القدم كما يقول شاعرنا "صلاح عبد الصبور". وها هو حبك يتحجر رويداً رويداً على جدارية الزمن كتلك السمكة الهاربة من المحيط، المتفاجئة بغدر الأقدار، المأخوذة على حين غرة من الزمن ليقتلها الزمن، ليخلدها الزمن فهل كانت تعلم كم أن الزمن كان رائعاً معها وغداراً في ذات الوقت.. وحين يأتي مساء الشتاء، مساء الصمت، المساء الذي لا رغبة لدي في محادثة ساعاته. هل أملك إلا وسادتي لأحضنها وبطانيتي لأتدفأ بها..، وهل أتذمر؟.. لا.. وكم أود أن أهمس لك في هذا المساء الشتوي البارد بأمنياتي المؤجلة:

يا ليت...
يا ليت هذا العالم أنا وأنت
يا ليت هذا العالم مسرحٌ لأحلامنا
لحكايتنا التي توءد ولا تموت
حكاية لخصت كل أيامنا في كلمتين:
عشق، ومحال
وأعترف:
حبك كان أول الدهشة
حبك كان أول اللهفة..،
حبك كان أول خطوة لي في درج الياسمين
حبك كان أول العشق...
حبك حمل أول الشوق...

حبك أفرز أول التوق...
يا تلك الآهة التي تمزق
وذاك النفس العميق
في هذا الدرب العتيق
آه منك يا أنت...

***

ها أنا أعايش أول شتاء بعد فراقنا.. ها أنا وحيدة من جديد في هذا الليل الطويل.. ها هو نورس آخر يرحل عن شواطئي.. ها هو عاشق آخر يغادر مرافئي.. و...

أشتاق فارس.. أشتاق لمجيئك كل صباح إلى مكتبي لتقول لي: صباح الخير.. أشتاق لابتسامك الحلوة التي لا تفارقك حين تراني.. أشتاق لغيرتك المحببة لي حين تجد أحد المواطنين في مكتبي فلا تستطيع دخوله وتكتفي بالنظر إلي من بعيد وأكتفي أنا بالابتسام لك من بعيد وحين يغادر المواطن تدخل المكتب وتبدأ بالصراخ علي لأني لم أطلب منه الانتظار في الكراسي المخصصة لهم حتى يحين وقت الاستقبال. وهل أنزعج منك؟ لا، لأني أعلم أنك غاضب لكونك لم تستطع بعد أن تقول لي: صباح الخير فيبدأ يومك.. أشتاق لزمننا الذي لا يحسه غيرنا.. أشتاق للحظاتنا الدافئة.. أشتاق لتحالفك مع دنيا لتبدأ جلسات تعليقاتكما الساخرة على تصرفاتي وملابسي، هذه الجلسات التي أصبحت تنعقد في غيابي بعد الفراق.. أشتاق في الحقيقة لتفاصيل كثيرة.. أشتاق.. هذا الشتاء فصل للذكريات فقط.. هذا الشتاء فصل للآلام

فقط.. هذا الشتاء فصل للصمت فقط.. هذا الشتاء فصل لهطول الأمطار والدموع فقط.. وأنت فارس أكثر من يعلم ماذا يعني لي الشتاء.. إنه أيضاً فصل الضعف والانزواء.. وأشتاق.. وكم سئمت كبرياء صمتنا في هذا الشتاء.. كم سئمت نداءاتنا المغتالة في هذا الشتاء.. كم تتعبني نظراتك ويتعبني سكوتي في هذا الشتاء.. كم يتعبني قدرتنا على التحمل والصبر في هذا الشتاء.. لم نحن إلى تلك الدرجة جيدين كزملاء عمل؟؟.. وأشتاق فارس.. كم أشتاق في هذا الشتاء... بالتحديد، في هذا الشتاء، لا في شتاء العام المقبل ولا في شتاء العام الذي مضى، بل في هذا الشتاء.. كم أشتاق.. أشتاق...

وهذه الأمسية هي ليلة للحب كما يبدو.. أتساءل: لم أنت هناك لا تسمع صدى آهاتي، ولا تحس بكل عذاباتي؟.. لم أنا مستيقظة لما بعد منتصف الليل، حائرة وتائهة أو ضائعة، لا أدري؟.. لم تخاصمني أوراقي؟.. لم دائماً أمنحك الحب وتمنحني الآهات؟.. لم يقبل الشتاء هذا العام ليكون فقط فصلاً للذكريات؟.. لم؟؟؟؟؟...

***

تشير الساعة المعلقة على حائط المكتب إلى الحادية عشرة صباحا. تنظر دنيا إلي. عيناها تقولان بأنها تريد إخباري بشيء لكنها مترددة. قطبت حاجبي مستعجبة. رمت كل الكلام وبقيت تنتظر ردة فعلي:

– زوجة فارس حامل.

كنت واقفة أمام مكتبي. نظرت إليها جيداً. فتحت فمي وكنت سأصرخ بملء فمي: ماذا تقولين؟ لكنني لم أفعل. أطبقت على شفتي وتهالكت فوق الكرسي منهارة. ماذا؟؟؟؟؟؟؟. زوجة فارس حامل. أعدت العبارة عدة مرات بداخلي لتسمعها آلاء.. آه، آلاء، كم حظك سيئ مع هذا الرجل.. حامل يعني حِمل آخر يعني لا أمل البتة.. أقسم أني رغبت في حمل مسدس لأطلق آخر رصاصات الرحمة على قلبي ليموت بدل الاحتراق أحيانا والتجمد أحياناً أخرى. لعنت هذا الحب الذي لا يقتلني ولا يحييني. وددت لو أستطيع غلق نعش حبي له لأقوم بتركه يهوي داخل سواد بحر الظلمات. وددت لو أتمكن من تفجير جزيرتي السرية بالديناميت لتغرق هي الأخرى في محيط الذكريات. أردت القيام بأمور كثيرة منها الدامية ومنها المدمرة لكن في الحقيقة لم أنفذ أيّاً من هذه الأفكار. بقيت كلها مشاريع مؤجلة، حبر على ورق فقد أحسست حينها بأن كل الأوكسجين الذي بداخل دماغي قد نفد، وأختنق لاختناق عقلي. أحسست حقاً باختناق عقلي، عقلي فقط. ما أزال متسمرة في مكاني فوق الكرسي مأخوذة بالخبر لا أستطيع الحراك، ولا قوة لدي للنطق ولو بحرف.

***

ساعات الليل طويلة، طويلة.. متكورة داخل بطانيتي.. جسدي منهك.. أبجديتي متعبة.. لا أستطيع حمل القلم للكتابة... و.. و...:

آآآآآه...

يا هذا الليل الطويل
كم أود أن أعوي...،
أن أعوي تحت المطر
بليلة اكتمل فيها القمر
أن أعوي كذئبة متوحدة، بائسة، يائسة..

ثم أنفذ حكم الإعدام صلباً على قلبي لينتهي كل شيء بموته ما دامت الحياة ليست قدره. ولن أتركه وحيداً. سأبقى بجانبه، أندب حظه العاثر في العشق، وأنتظر.. أنتظر مجيء الغربان لتأكله كله حينها قد أرتاح لتأكدي بأنه لم يعد هناك في الوجود شيء اسمه: قلب آلاء.

- تمت؟؟؟...
ربما،.. لست أدري...-